الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية

الجزائر- بوزريعة

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تخصص التاريخ الوسيط

حياة الترف والبذخ وانعكاساتها على المجتمع الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (10 – 11م)

إعداد الطالب:

محمد عيساوة

إشراف الدكتور:

توفيق مزاري عبد الصمد

لجنة المناقشة:

د- عبد العزيز الشهبي	رئيسا
د- توفيق مزاري عبد الصمد	مقررا
د- محمد الأمين بلغيث	عضوا مناقشا
د- جميلة بن موسى	عضوا مناقشا

السنة الجامعية

2012 – 2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى سبب الوجود بعد المولى المعبود صاحب الكرم والجود والِدَيْ أُمِي حفظها الله، وأبي رحمه الله اللّذين أملا أن أوتى سعة من العلم.
- إلى علماء الأمة العاملين، وحكّامها العادلين، ودعاتها المخلصين، وأساتذتها المجدين، وطلبتها المجتهدين.
- إلى كل المخلصين، السائرين على النهج القويم من أبناء هذا الدين.

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع ...

المقـــدمـــة

جاء المسلمون الأوائل إلى الأندلس يحملون رسالة خالدة، ويبشرون بدين سمح، فكانت الدفعة الروحية والحضارية التي بدأت مع فتح الأندلس قد وصلت ذروتها، حيث كانت عقول الفاتحين صافية، وقلوبهم طاهرة، وأرواحهم نقية، وأهدافهم عالية، وثقتهم في الله عظيمة وعلى الرغم من بعض الانحرافات في مراحل الفتح والولاية والإمارة (316/92هـ)، فقد استطاعت الروح الإسلامية أن تعبر نحو ثلاثة قرون، وهي تعمق وجودها العقدي والحضاري، حتى أصبحت عقيدة الإسلام هي الغالبة وأصبحت قرطبة جوهرة العالم.

ومع بداية عهد عبد الرحمان الناصر(300-350هـ) الذي استطاع أن يسيطر على الأوضاع ويستقر له الحال، مال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم، وظهرت عواطفهم الأرضية وغرائزهم المادية جلية، وركنوا إلى حياة الدعة والترف، ولعل الأمر الذي ترك المسلمين في الأندلس يجنحون إلى مباهج الحياة ومسراتها هو كثرة مغانم الحروب من جهة، ومن جهة أخرى ما أتاحته لهم بلاد الأندلس من خيرات حيث كانت مصادر الثروة المادية في الأندلس كثيرة ومتنوعة، ومن أهمها سعة الأرض الأندلسية التي كانت تفيض بأنواع الثروات الباطنية والسطحية.

وبذلك بدأت حياة الترف والبذخ تظهر للعيان خاصة عندما قرر الناصر بناء مدينة الزهراء التي أرادها أن تكون آية في الجمال والبهاء، وعندما جاء محمد بن أبي عامر(366-392هـ) سار على خطى الناصر فأنشأ مدينة الزاهرة شرقي قرطبة لتنافس الزهراء أو تحل محلها.

وهكذا كان التكالب المادي ومظاهر الثراء والبذخ هي السمات الغالبة على الحياة الاجتماعية في الأندلس خلال عهدي عبد الرحمان الناصر والمنصور بن أبي عامر اللذين يوشكان أن ينتظما القرن الرابع الهجري(300-392هـ)، واستمر هذا التكالب المادي وتجذّر على عهد ملوك الطوائف(399-484هـ) الذين ورثوا هذه الظاهرة على أسلافهم، فوقع نوع من التنافس فيما بينهم على مظاهر الترف بغية إظهار القوة والعظمة فيما بينهم.

وهذا ما دفع فضولي للبحث في هذا الموضوع لإبراز حياة الترف والبذخ في الأندلس واسما بحثي بـ: **حياة الترف والبذخ وانعكاساتها على المجتمع الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (10-11م).**

وتكمن أهمية الموضوع في أن هذه الظاهرة- حياة الترف - كانت بارزة في الأندلس، وكان عليّ أن أبحث في أسبابها، وكذا مظاهرها وانعكاساتها على المجتمع.

وقد جاء اختياري لهذا الموضوع رغبة مني في الكتابة عن تاريخ فردوسنا المفقود علّنا نأخذ منه العبرة والعظة هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف النقاب عن هذه الظاهرة

التي عرفها المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة والتي وعلى حسب حدود اطلاعي لم تحظ بدراسة سابقة عدا رسالة ماجستير تناولها الطالب نادر فرج زيارة من دولة فلسطين والتي كان عنوانها: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي (92-668هـ / 711-1269م)، إلا أنها أتت شاملة لست قرون من الوجود الإسلامي في الأندلس ولم تسلط الضوء كثيرا على فترة الدراسة - القرنين الرابع والخامس الهجريين -، وجاء اختياري لهذا الموضوع كذلك حرصا مني على إظهار مخاطر التمادي في حياة الترف والبذخ لدى المسلمين.

وبالنسبة لإشكالية البحث فقد رأيت أن تكون على النحو التالي: ما هي أهم مظاهر حياة الترف والبذخ في الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين (10- 11م)؟، وهل كانت لهذه الحياة المترفة علاقة مباشرة في سقوط الحكم هناك؟

ولعل من بين أهم الإشكالات التي يطرحها البحث أيضا ما يلي:

- ماذا نقصد بالترف والبذخ؟ وهل لهما نفس المعنى؟
- ما هي أهم مصادر الثروة في الأندلس التي أدت إلى حياة الترف والبذخ؟
- هل أحسن الأندلسيون التعامل مع الثروة والغنى؟
- فيما تمثلت أهم مظاهر حياة الترف والبذخ على عهدي الخلافة والدولة العامرية؟
- فيما تمثلت أهم مظاهر حياة الترف والبذخ على عهد ملوك الطوائف؟
- ما هي أهم الانعكاسات التي جرّتها حياة الترف والبذخ على المجتمع الأندلسي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدت في بحثي هذا المنهجَ التاريخي لما يتضمنه من إعمال أدوات الوصف والاستنباط والتفسير والتحليل، كما اقتبست جملة من النصوص التاريخية في إطار عملية الاستشهاد والنقد، ثم استخلاص النتائج التي أراها مناسبة لخدمة الموضوع.

وقد استهللت بحثي بمقدمة استعرضت فيها أهمية الموضوع، ودواعي اختياري له، وكذا أهم إشكالاته، والمنهج الذي اتبعته، وقسمت بحثي إلى أربعة فصول

الفصل الأول: تناولت فيه مفهوم الترف والبذخ وأهم مصادر الثروة في الأندلس.

الفصل الثاني: جاء الحديث فيه عن حياة الترف والبذخ خلال عهدي الخلافة والدولة العامرية (300-399هـ) مبرزا لأهم مظاهر الترف والبذخ التي عرفها الأندلس خلال هذه الفترة.

الفصل الثالث: خصصته لحياة الترف والبذخ على عهد ملوك الطوائف (399-484هـ) وأهم مظاهرها التي عرفها الأندلس خلال هذا العهد.

الفصل الرابع: تكلمت فيه عن انعكاسات حياة الترف والبذخ على المجتمع الأندلسي فيما تعلق بالجانب السياسي والاقتصادي وكذا السلوكي والاجتماعي.

وقد أدرجت ما توصلت إليه من نتائج في خاتمة البحث، كما أتبعتها بملاحق تعكس لنا مواضيع لها علاقة مباشرة وفصول البحث، وأعقبت كل ذلك بفهارس للأعلام والأماكن والموضوعات.

ولأجل تغطية فصول هذا البحث اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع.

عرض وتقييم المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- كتب التاريخ العام:

كان اعتمادي فيها منصب على ما كان منها معاصرا لفترة القرنين الرابع والخامس الهجريين أو القريبة منه، وكان في مقدمتها ما كتبه المؤرخ ابن حيان وهو أبو مروان حيان بن خلف ولد بقرطبة سنة (377هـ/ 982م)، وتوفي بها سنة (469هـ/ 1079م)، عاش أواخر الخلافة الأموية وفترة من عهد ملوك الطوائف، ويعد ابن حيان شيخ المؤرخين الأندلسيين وعمدتهم نظرا لدقة كتاباته وموضوعيته، لكن ما يؤسف له ضياع تاريخه المسمى: "المقتبس في أخبار الأندلس"، ولم يبق منه سوى بعض القطع، ولحسن الحظ فقد نقل عنه بعض المؤرخين وحفظوا لنا بعضا من هذه الثروة التاريخية النادرة كابن بسام وابن عذارى، وابن الخطيب وابن خلدون والمقري، لاسيما فيما تعلق بالحديث عن الحياة الاجتماعية للأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين.

ويعتبر كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري الذي ولد سنة 447هـ/ 1056م، وعين سنة 456هـ/ 1064م كولي عهد لجده الأمير باديس بن حبوس، ثم اعتلى عرش غرناطة سنة 469هـ/ 1077م وثيقة نادرة من أحد ملوك العصر، وشاهد عيان على أحداث عصره لاسيما وأنه شارك في صنع بعضها، وقد استفدت منه في الفصل الرابع خاصة فيما تعلق بعلاقته بملوك النصارى.

ويأتي بعد هذين المؤرخين، مؤرخون لا يقلون أهمية وإن كانوا متأخرين عمّن سبقهم مثل ابن عذارى وابن خلدون، ويعد كتاب"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذارى المراكشي الذي عاش في القرن التاسع الهجري / الثالث عشر ميلادي من بين الكتب التي تحدثت بإسهاب على الخلافة الأموية والدولة العامرية، وعن تاريخ الأندلس في عصر ملوك الطوائف وهذا في جزئيه الثاني والثالث على التوالي، ويعد هذا الكتاب أشمل كتب التاريخ العام المدونة لحوادث الأندلس السياسية والاجتماعية والأوضاع الاقتصادية،

وهذا ما كان له علاقة وفصول بحثنا، وأما ابن خلدون(ت808هـ/ 1405م) فقد رجعت إلى مقدمته خاصة فيما يتعلق بجانب العمران وعلاقته بالترف.

- كتب التراجم والطبقات:

من أشهر كتب التراجم والطبقات التي اعتمدت عليها في هذا البحث لترجمة بعض الشخصيات كتاب "الحلة السيراء" لابن الأبّار(ت635ه / 1238م)، والذي رتب فيه تراجمه على حسب القرون مبتدءا بالقرن الأول الهجري ومنهيا بالقرن السابع الهجري، مما يسهل مهمة الباحث، كما اعتمدت على كتاب "المغرب في حلى المغرب"لابن سعيد(ت685هـ/1286م) والذي أورد فيه عدة تراجم لشخصيات أندلسية.

ومن كتب الطبقات المشرقية اعتمدت على كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان(ت681هـ/1284م)، وكتاب "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي(ت764هـ/1360م)، وقد وردت فيهما تراجم لمشاهير الأدباء والفقهاء والسياسيين الأندلسيين والتي كانت لها علاقة وفصول بحثنا.

- كتب الأدب:

من الكتب الأدبية التي اعتمدت عليها في بحثي كتابي ابن حزم(ت456هـ/1066م) الموسومين على التوالي بـ: "طوق الحمامة في الألفة والألّاف "، و"رسائل ابن حزم" حيث يعتبر ابن حزم شاهد عيان على أحداث عصره لأنه عاصر فترة الخلافة الأموية الأخيرة، كما عاصر عهد ملوك الطوائف، وقد استفدت كثيرا من رسائل ابن حزم خاصة الجزء الثالث منها عند حديثه عن سياسة ملوك الطوائف تجاه رعيتهم وتجاه ملوك النصارى عند معرض حديثي عن فساد ملوك الطوائف في الفصل الرابع .

أما كتاب ابن بسام الشنتريني (ت 542هـ/1147م) الموسوم بـ: "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، فيعتبر من أهم الكتب الأدبية التي تعرضت لأحداث الأندلس في عصري الخلافة وملوك الطوائف، خاصة فيما تعلق بالحياة الاجتماعية، وقد استفدت منه كثيرا في هذا البحث، وفيما يخص كتاب المقري (ت 1042هـ/1632م) الموسوم بـ: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، وعلى الرغم من أنه كتاب متأخر تاريخيا، إلا أنه يعد موسوعة أدبية تاريخية كبرى، جمع صاحبه فيه الكثير، ونقل عن كتب ضاعت أصولها ككتاب ابن حيان، لذلك فهو كتاب جليل الفائدة، ولقد أفادني كثيرا في فصول هذا البحث.

- كتب الجغرافيا:

يأتي في مقدمتها حسب الترتيب الزمني كتاب "فضائل الأندلس وأهلها" لابن حزم (ت 456هـ) وآخران، استفدت منه عند حديثي عن الأنشطة الاقتصادية في الأندلس، وكتاب "نصوص عن الأندلس" للعذري (ت478هـ/1075م) وهو كتاب تاريخي جغرافي استفدت

منه في الفصل الأول عند حديثي عن مصادر الثروة في الأندلس، وكتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ت626هـ/ 1229م)،وكتاب"تقويم البلدان"لأبي الفداء (ت732هـ/1329م)، وكتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" لمحمد بن عبد الله الحميري المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري، حيث استفدت منهم كثيرا في ترجمة بعض المدن التي ورد ذكرها في فصول البحث.

- كتب الحسبة:

من بين كتب الحسبة التي تم الاعتماد عليها في هذا البحث كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب" لابن عبدون وآخران، حيث يعتبر هذا الكتاب مرآة عاكسة للحياة الاجتماعية في ذلك العصر حيث وقف مؤلفيه من خلاله على التسيب والتقهقر الأخلاقي لذلك العصر، ولذلك يعد ذو أهمية بالغة لمن أراد دراسة هذا العهد، كما اعتمدت على كتاب "في آداب الحسبة والمحتسب" للسّقطي الذي توفي خلال القرن التاسع الهجري، والذي يعرّفنا من خلاله كذلك على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر.

2- المراجع:

عدت في بحثي هذا إلى الكثير من المراجع الحديثة العربية والمترجمة، ومن أهم هذه المراجع التي أفادتني كثيرا نذكر: "المجتمع الأندلسي في العصر الأموي" ليوسف حسين دويدار، والذي تعرض فيه للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأندلسي خلال العصر الأموي، وقد استفدت منه كثيرا في الفصل الثاني عند معرض حديثي عن مظاهر الترف الاجتماعية والعمرانية خلال عهدي الخلافة والدولة العامرية، وكذلك كانت الاستفادة عظيمة من كتاب "دولة الإسلام في الأندلس" بجزأيه - الخلافة الأموية والدولة العامرية، دول الطوائف - لمحمد عبد الله عنان، حيث أفادنا في الفصل الثاني والثالث، وكذلك استفدت كثيرا خاصة في الفصل الرابع من هذا البحث من كتاب "العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصري بني أمية وملوك الطوائف" لرجب محمد عبد الحليم.

وعن الصعوبات التي واجهتني في بحثي هذا أذكر:

- كان من العسير علي التوفيق بين إنجاز الرسالة وبين عملي، علما أني كنت أعمل خارج ولاية إقامتي.
- لم تكن عملية الحصول على بعض مصادر ومراجع هذا البحث باليسيرة، حيث أنه لم يتأتّى لي ذلك إلا بعد الاتصال المتكرر ببعض الأساتذة وجامعات الوطن.

وفي الختام لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان بعد الواحد الديّان إلى أستاذي المشرف الذي كان خير موجه ومؤنس الدكتور توفيق مزاري عبد الصمد بدءا بقبـوله الإشراف على هذه الرسالة، وكذا توجيهاته القيمة طيلة مشوار البحث، والشكر موصول لكل من قدم لي يد العون، وشدّ من أزري، ووقف إلى صفّي، جزى الله الجميع عنّي كل خير، وحفظهم من كل بلاء وضير.

الفصل الأول: الترف ومصادر الثروة في الأندلس

أولا: الترف

1- معنى الترف وعلاقته بالغنى والإسراف:

- معنى الترف
- العلاقة بين الترف والغنى
- العلاقة بين الترف والإسراف

2- الترف في القرآن والسنة والآثار:

- الترف في القرآن
- الترف في السنة والآثار

ثانيا: مصادر الثروة في الأندلس

1- الأنشطة الاقتصادية:

- الزراعة
- الصناعة
- التجارة

2- موارد بيت المال:

- الخراج
- الجزية
- الفيء و الغنيمة
- العشور
- الزكاة
- المكوس والمغارم
- الأحباس والأوقاف

أولا: الترف

1- معنى الترف وعلاقته بالغنى والإسراف

- **معنى الترف :**

الترف في اللغة هو التَنَعُم[1]، والتُرَفَة بالضم النّعمة[2] والتُرَفة هي الطعام الطيب[3] وقيل: أتْرفته: أنْعمته، ومنه قوله تعالى: ﴿**ما أُتْرِفُوا**﴾[4]أي ما نُعِّمُوا[5].

أما المُتْرف، فهو الشخص الذي أبْطرته النِعمة[6] وسعة العيش[7] ورجل مُتْرَف ومُتَرّف مُوسّع عليه[8] واسْتَتْرَف، تكبّر وطغى، من الغنى والسعة[9].

فالترف بهذه المعاني لا يخرج عن كونه دال على التوسع في ملاذ الدنيا، مما يؤدي في غالب الأحيان إلى الكبر والطغيان وكفر النعم .

أما البَذَخُ فهو: الكِبْرُ، وبَذَخَ: كَفَر، وتَبَذّخ: تَكَبَّر[10].

وبذلك يمكن الاستنتاج أن كلمة البذخ مرادفة ونظيرة في الدلالة لكلمة الترف إذ تدوران في نفس المعنى وهو الكبر والطغيان وكفر النعم.

---

[1] ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج 9، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000م، ص 476.
[2] نفسه، ص 476.
[3] ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخران،ج 4 ، د.ط ، دار المعارف، د.ت،ص 429.
[4] سورة هود، الآية 116 .
[5] محمد موسى الشريف: الترف وأثره في الدعاة والصالحين، ط2، دار الأندلس الخضراء، السعودية، 2004م، ص11.
[6] البطر: هو الطغيان عند النعمة وطول الغنى، وبطر النعمة لم يشكرها، انظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص429.
[7] نفسه، ص429.
[8] نفسه، ص429.
[9] شعبان عبد العاطي عطية وآخران: المعجم الوسيط ،ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م، ص84.
[10] محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي: المختار من صحاح اللغة، د.ط، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت، ص33.

- **العلاقة بين الترف والغنى:**

ليس بالضرورة أن يكون الغنى متعلقا بالترف، بمعنى أن الغنى قد يؤدي إلى الترف، لكن ليس ذلك حتما، فكم من غني شاكر بعيد عن الترف، مترفع عنه، فالغنى مرتبة اقتصادية تشير إلى حجم الثروة التي يملكها فرد من الناس ولكنها لا تقف عند مجرد الرقم الحسابي، بل تترك آثارا معينة في نفس الغني وسلوكه، متميزا عما عند الناس وجمهرتهم[1]لكن بعض الناس يترفع عن التأثر السلبي بالثروة، ويتخلق بأخلاق الصالحين ويتصف بصفاتهم[2].

أما الترف فيبدو أنه صفة زائدة عن الغنى، حيث يفهم من تجاوز المصرف المعتاد في إشباع الحاجة ليصل إلى حد التبذير والإسراف، ويظهر بذخا في الثياب والطعام وأداة الركوب والمسكن مثل ما هو المألوف من حال المترفين، بينما بإمكان هذا الغني - مع ثروته الطائلة - أن يقتصر على المعتاد دون أن يفرط في إشباع حاجته، ومن الممكن أن يكون الإنسان غنيا ولا يكـون مترفا[3]، لكن السرف في المعيشة بتجاوز الحد في النـفقة وإجابة مطالب النفس كلها يعد ترفا حيث أن المترفون يكاثرون غيرهم بالفضول التي يجمعونها ويتنافسون بينهم في اصطياد المتع ويقبلون على الدنيا بنهمة لا تنتهي[4].

والفقه الإسلامي لم يدن الغنى بل سمح به وشرع له ما يضمن عدم إساءة استخدامه، فالمال متاع وزينة، ولكنه ضرورة أيضا حسب موازين العيش، ووسيلة من وسائل الجهاد في سبيل الله تعالى، ويكون زينة عند زيادته عن سد الحاجة الضرورية[5].

والإسلام بتوجيهاته يمنع من تحول الثروة إلى أداة سيطرة وحكم يستبد من خلالها الأغنياء بعامة الناس، وذلك بأداء الحق الواجب، والإنفاق في سبيل الله، وهذا سياج محكم يمنع الغنى أن يتحول إلى ترف و أداة فساد[6].

هذا ويوجد من هو غني غنى فاحشا لكنه بعيد عن الترف أي بمعنى ليس كل غني هو مترف بالضرورة .

- **العلاقة بين الترف والإسراف:**

العلاقة بين الترف والإسراف علاقة وثيقة مترابطة، فالسرف هو أول ظواهر الترف، وإن شئت قلت: الترف هو أول علامة على الإسراف، وهو مجاوزة الحد الأوسط والانحدار إلى الطرف الأخير أو الطرف الذي يسمى غلوا و إفراطا[7].

---

[1] محمد موسى الشريف: المرجع السابق، ص12.
[2] نفسه، ص12.
[3] محمد موسى الشريف: المرجع السابق، ص13.
[4] محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط3، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2005م، ص29-30.
[5] محمد موسى الشريف: المرجع السابق، ص13.
[6] نفسه، ص13.
[7] نفسه ،ص14.

هذا وقد نهى الله تعالى في قرانه الكريم عن الإسراف، في قوله: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[1].

وقال النبي ﷺ" **كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب أن يرى نعمته على عبده** "[2].

وقال أبو زهرة [3] - رحمه الله تعالى - " هذا الحديث يبين لنا حدود الترف وحدود الحلال، فحيث كان السرف وكانت المخيلة كان الترف، وحيث كانت الحدود مرعية في طلب زينة الحياة الدنيا و طعامها من غير سرف ولا مخيلة يكون الحلال "[4].

يفهم من هذا كله أن للترف حدودا إذا تجاوزها الإنسان وقع في دائرة السرف أي بمعنى أن الترف هنا كان طريقا للسرف، لكن إذا طلب الترف من غير مخيلة وروعي فيه حدوده في إطار الاعتدال يعتبر الترف من هذا الوجه نافيا لكل أوجه السرف.

2- بعض ما جاء عن الترف في القرآن والسنة و الآثار:

- ما جاء عن الترف في القرآن:

بلغ تعداد الآيات التي تحدثت عن حال المترفين في القرآن الكريم ثماني آيات في سبع سور مختلفة، ومن ثم اختلف المفسرون في تفسير هاته الآيات حسب السياق الذي وردت فيه.

وردت كلمة أترفوا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾[5]، أتت كلمة "أترفوا" في هذه الآية بمعنى: نُعّموا، أي: اتبع اللذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة،"وكانوا مجرمين" أي كانوا كافرين[6]، ومما جاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾[7]، والمعنى اختلف فيه المفسرون، يقول ابن كثير: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أي: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا

---

[1] سورة الأعراف ، الآية 31.

[2] الحاكم : المستدرك على الصحيحين ، ج4، ط1، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، ص241.

[3] محمد احمد ابن زهرة: أكبر علماء الشريعة في عصره، ولد في المحلة الكبرى سنة 1316هـ، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي، ثم تولى التدريس في أماكن مختلفة، و ترقى إلى أن عين أستاذا محاضرا للدراسات العليا بالجامعة، ثم وكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلا لمعهد الدراسات الإسلامية، له أكثر من أربعين مؤلفا، توفي بالقاهرة سنة 1394هـ، انظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج6، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ص25-26. .

[4] محمد موسى الشريف : المرجع السابق ، ص15.

[5] سورة هود، الآية116.

[6] البغوي: تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخران، ج4، د.ط، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1411هـ، ص206.

[7] سورة الإسراء، الآية 16.

العقوبة[1]، وقال سيد قطب: في تفسير هذه الآية: " المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعموا بالدعة وبالراحة والسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وإذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وارخصوا القيم العليا التي تعيش إلا بها ولها، ومن ثمة تتحلل الأمة وتسترخي وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحاتها"[2].

أما في سورة سبأ فقد وردت مشتقة الترف بلفظة "مترفوها" في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**﴾[3].

والمقصود بالمترفين هنا هم رؤوس القوم في الشر[4] وكذلك وردت اللفظة نفسها" مترفوها" في سورة الزخرف في سياق الكفر والتكذيب حيث قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾[5] .

كما وردت كلمة "مترفيهم" في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ، لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ، قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ**﴾[6].

وقد فسرها البعض بالسعداء المنعمون في الدنيا[7] وقيل المتنعمون الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية ممن لم يحصل لهم المكاره[8]، كما أن كلمة الترف جاءت في سياقها القرآني لتصف أهلها المترفين، و ذلك في قوله تعالى :﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾[9]، أي لا يفيدكم الركوض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات[10].

---

[1] ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ج5، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، 1999م، ص61.
[2] سيد قطب: في ظلال القرآن، ج4، ط10، دار الشروق، القاهرة، 1982م، ص2217.
[3] سورة سبأ، الآية 34.
[4] ابن كثير: المصدر السابق، ج6، ص521.
[5] سورة الزخرف، الآية 23.
[6] سورة المؤمنون ، الآيات 64-67.
[7] ابن كثير: المصدر السابق، ج5، ص482.
[8] عبد الرحمان بن ناصر السعدي: تفسير السعدي، د.ط، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص588.
[9] سورة الأنبياء، الآيات 11-13.
[10] عبد الرحمان بن ناصر السعدي: المصدر السابق، ص547.

هذا وقد وردت كلمة الترف في سياق قرآني آخر لتعني النعيم، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** ﴾[1]، فأترفناهم هنا بمعنى نعمناهم[2]، في حياتهم الدنيا بما وسّعنا عليهم[3].

وأخيرا جاءت مشتقة الترف في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ،إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ**﴾[4]، أي كانوا منعمين [5]، مقبلين على لذات أنفسهم[6].

وخلاصة القول أن كل ما جاء عن الترف في القرآن الكريم جاء على سبيل الذم والقدح، وأن من جملة انعكاسات المبالغة في الترف الفحش، والتكذيب، والشر، والظلم، والندم، وكلها معاني تعكس لنا الجانب السلبي من حياة الإنسان في استخدام الثروة استخداما لا يخدم الصالح العام، وهذا ما يرجع بالسلب على المجتمع.

- **ما جاء عن الترف في السنة و الآثار :**

إذا كان مفهوم الترف في القرآن الكريم قد اتخذ من مرادفات النعمة و الشهوة ومتع الحياة بمختلفها معنى له، فإن ما جاء في السنة النبوية والآثار عن الترف لم يخرج على هذا المعنى، وإذا كان القرآن قد نهى عن الإسراف و الترف وذمهما فإنما ما تواتر من أحاديث عن رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة من بعده لم تخرج في مجملها عن هذا الإطار.

فالرسولﷺ والصحابة من بعده زهدوا في الحياة الدنيا، ولم يركنوا لها، ومن بين الأحاديث التي دلت على رفض الرسول ﷺ لزخرف الحياة قوله: **" عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأجوع يوما"**[7].

وقوله ﷺ: **" من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا "**[8].

من خلال هذين الحديثين يتبن لنا أن رسول الله ﷺ كان رافضا لزينة الحياة الدنيا، مؤكدا على حقيقة القناعة في قوله: **" حيزت له الدنيا "**.

---

[1] سورة المؤمنون، الآية 33.

[2] جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، د.ط، دار الإمام مالك، الجزائر، 2010م ، ص344.

[3] البغوي: المصدر السابق، ج5، ص417.

[4] سورة الواقعة، الآيات 41-45.

[5] البغوي: المصدر السابق، ج8، ص18.

[6] ابن كثير: المصدر السابق، ج7 ،ص538.

[7] الترمذي: الجامع الكبير، ج4، ط1، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، 1996م، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه(35)، حديث رقم: 2347، ص168.

[8] نفسه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب(34)، حديث رقم: 2346، ص167.

ولم يكن نهي الرسول ﷺ عن الانغماس في شهوات الحياة الدنيا مجملا بل تعداه ليحذر من تناول الأطعمة والأشربة في أواني الفضة والذهب، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: **" الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر[1] في بطنه نار جهنم "[2]**، وفي حديث آخر: استسقى حذيفة دهقانا[3]، فسقاه في إناء من فضة، فحذف به وقال : إني لو لم أتقدم مرة أو مرتين لم أفعل، **" إن رسول الله ﷺ نهانا بأن نشرب في الذهب والفضة وأن نلبس الحرير و الديباج فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة"[4]**.

كما نهى عليه السلام عن التنطع في اللباس، فعن علي رضي الله عنه **" أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس القسي[5] والمعصفر[6] وعن تختم الذهب وعن قراءة القرآن في الركوع "[7]**.

هذا وقد نهى عمر الفاروق رضي الله عنه أصحابه أن يأخذوا بشيء من أسباب الترف، خاصة لمن سكن الديار المفتوحة وخالط أهلها المترفين، إذ نجده قد كتب إلى بعض عماله العرب على بلاد العجم: " إياكم و التنعم وزي العجم "[8].

كما أن الخلفاء الراشدون - رضوان الله عليهم - يضربون الأمثال في محاربة الترف فسيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يعيش عيشة قريبة من الكمال في الرزق، حتى إذا تولى الخلافة عاش عيشة جافة، ثم هذا سيدنا الإمام علي- كرم الله وجهه- كان قبل الخلافة يعيش عيشة ناعمة، وإن لم تكن مترفة حتى إذا تولى الخلافة علم أنها الابتلاء الأكبر[9].

يُفهم من كل ما سلف أن النبي ﷺ والصحابة - رضوان الله عليهم- من بعده من خلال مروياتهم دعوا إلى الابتعاد قدر المستطاع عن مظاهر الترف لما قد ينجر عنه من مفاسد.

---

[1] جرجر: البعير أي ردد صوته في حنجرته عند الضجر، وجرجر الشراب في الحلق، والنار صوتت، والشراب جرعه جرعا متواترا له صوت، أنظر: شعبان عبد العاطي عطية و آخران: المرجع السابق، ص144.

[2] النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج7، ط1، تحقيق: أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2003م، كتاب اللباس والزينة(37)، باب: تحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الشرب وغيره على الرجال والنساء(1)، رقم الحديث: 5353/2065 -1، ص163.

[3] الدهقان: كلمة فارسية معربة بمعنى التاجر، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق،ج15، ص1443.

[4] البخاري: صحيح البخاري، ج4، دار صبح وإيدي صوفت، بيروت- الدار البيضاء، 2007م، كتاب اللباس(77)، باب افتراش الحرير(27)، رقم الحديث: 5837 وطرفه في 5426، ص69.

[5] القسي: ثوب يُحمل من مصر يخالطه الحرير، أنظر: الرازي: مختار الصحاح، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م، ص223.

[6] المعصفر: اللباس المصبوغ، أنظر: نفسه، ص183.

[7] مسلم: صحيح مسلم، ج7، كتب اللباس والزينة(37)، باب النهي عن لبس الرجل الثوب المعصفر(4)، رقم الحديث: 2078/ 5404-29، ص185.

[8] أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، د.ط، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص246.

[9] محمد موسى الشريف: المرجع السابق، ص20.

ثانيا: مصادر الثروة في الأندلس

لاشك في أن للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ في الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات، فمن المعروف أنه إذا كثرت الأموال في أيدي الناس، فإنهم يتوسعون في الإنفاق وينعمون بالعيش بصفة عامة.

وقد كثرت الأموال في الأندلس نتيجة لتنوع مصادر الدخل المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة، بالإضافة إلى الموارد الأخرى المتمثلة في موارد بيت المال من خراج وجزية وعشور وغنائم وزكاة وأوقاف.

وامتلأت خزينة الدولة الأندلسية بالأموال في زمن الخليفة الأموي عبد الرحمان الثالث " الناصر ت 350هـ"[1]، ولم يكن ذلك بسبب الضرائب المفروضة على الناس بل كان ذلك ناجما عن تقدم الزراعة و الصناعة ورواج التجارة[2].

وبالرغم من الصراعات التي دارت بين المسلمين وبعضهم، واستهلكت جزءا كبيرا من مصادر الدخل، إلا أنه بقي الشيء الكثير الذي أدى إلى تعدد مظاهر الترف في شتى مناحي الحياة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من أفراد الطبقة الخاصة [3].

1- الأنشطة الاقتصادية :

- الزراعة :

استطاع المسلمون أن يوفقوا بين بيئتهم القديمة والجديدة التي استقروا فيها، ولم يكن تقدمهم في مجال الزراعة بأقل من تقدمهم في مجال الحرب والجهاد، ونجحوا في تحويل أجزاء كبيرة من الأراضي المقفرة بالأندلس إلى أراضي صالحة للزراعة[4].

وقد أدى استصلاح الأراضي بالمجتمع الأندلسي أن يمتهن الزراعة وأضحت الغالبية العظمى من عائدات المجتمع تأتيه من العمل في فلاحة الأرض[5].

ومما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس الاهتمام بشؤون الري، مثل إنشاء الترع والجسور، وشق القنوات وإقامة القناطر[6].

---

[1] هو الناصر عبد الرحمان بن محمد (300-350هـ)، تسمى بأمير المؤمنين سنتين من خلافته لما ضعف سلطان العباسية بالمشرق، وغلبت عليهم الأتراك، وادعت الشيعة ما شاءت بأفريقية، وساعدهم عليه قبائل البربر وأصبح الناس في الآفاق فوضى، وكان من قبله من آباء يدعون بالأمراء، أعلن نفسه خليفة سنة 316هـ، ظهر من أول ولايته من يمن طائره، وسعادة جده، واتساع ملكه، وقوة سلطانه، وإقبال دولته، خمود نار الفتنة – على اضطرامها بكل جبهة – وانقياد العصاة لطاعته ما تعجز عن تصوره الأوهام، وتكلف تحبيره الأقلام، انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ج1،ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص198-199.

[2] وول ديورانت : قصة الحضارة ، ج4،د.ن،د.ت ، ص254.

[3] حسين يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ط1، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، 1994م، ص342.

[4] نفسه، ص342.

[5] بدرو شلميطا: "صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي"، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ص1044.

[6] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص343.

ومن المؤكد أن الزراعة كانت تعد مصدرا مهما لإدرار دخل وافر على الأندلسيين، مما جعلهم يولونها اهتماما خاصا، وذلك باستعانتهم بأحدث الكتب التي أُلّفت في الزراعة، حتى فاقت الأندلس في هذا العلم وتقدمت أكثر مما بلغته مثيلاتها من المدن الأوروبية المسيحية[1].

هذا وقد استفاد الأندلسيون في ظل الحكم الأموي في مجال الزراعة من مياه الأنهر والأودية، كنهر تاجه، والوادي الكبير والوادي اليانع، وأقاموا عليها السدود وشقوا عليها الجداول [2].

ويمكن القول بأن هذه التقنيات الزراعية أدت إلى ازدياد اهتمام الأمويين في الأندلس بهذه المهنة، فقد أولوها عناية خاصة واضعين تقويما خاصا بها، عرف "بالتقويم القرطبي"، والذي أصبح فيما بعد دليلا لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها [3].

وكان مما اشتهرت به الأندلس الكثير من المحاصيل الهامة مثل: القمح و الشعير والذرة و الكتان[4] والفواكه[5] كما أدخلوا محاصيل جديدة من المشرق مثل: النخيل والرمان[6].

تعددت الملكية الزراعية في الأندلس، فهناك ضياع الخلفاء والأُمراء، وأراضي التملك الخاصة بالأفراد، وأراضي الأحباس أو الأوقاف، للأغراض الدينية، وهناك أراضي كانت تمنح لأشخاص لهم خدمات خاصة كالسفراء والعلماء وأهل الفن، ثم هناك الإقطاعات العسكرية التي كانت توزع على القبائل العربية والمغربية في المدن والكوَر[7] الأندلسية لاستقلالها وأخذ عطائهم من أموالها، ثم إرسال الفائض إلى خزانة الدولة[8].

- **الصناعة :**

تميزت المدن الأندلسية بتعدد الصناعات فيها، وقد أشار المقري إلى هذا الأمر، حيث نقل عن ابن غالب إعجابه بالأندلسيين وامتداحه إياهم في مجال الصناعة، فشبههم بالصين

[1] وول ديورانت: المرجع السابق، ج4، ص245.
[2] حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ط14،دار الجيل، بيروت، 1996م، ص329.
[3] نفسه، ص329.
[4] نفسه،ص329.
[5] المقري: نفح الطين من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج1، د.ط، دار صادر، بيروت، 1988م، ص126.
[6]حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص342.
[7] الكورة: الإقليم أوالصقع أوالبقعة يجتمع فيها قرى ومحال، وتحدث الجغرافي العربي المقديسي عن التقسيمات الإدارية في الأندلس فقال: إن في الأندلس ثماني عشرة كورة أو رستاق كما في الشرق، أنظر : المقديسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، دار صادر، بيروت، 1909م، ص235.؛ أنور محمود الزناتي: "المجتمع الأندلسي في القرن الرابع الهجري من خلال شهادة مؤرخ معاصر - ابن حيان القرطبي- "، دورية كان التاريخية، ع04، السنة الثانية، مصر، 2009م،ص41.
[8] أحمد مختار العبادي: "الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي، " بحوث ندوة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص111.

قائلا: "إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن "[1]، ومن بين الصناعات التي ظهرت بالأندلس وكانت تدر دخلا وفيرا نذكر:

صناعة المنسوجات والتي انتشرت في أنحاء كثيرة من البلاد نظرا لتوفر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف وكذلك الأصباغ اللازمة، فقد كان القماش يصنع في مدينة شنترين[2] غربي الأندلس بألوانه المتغيرة، كما كان يصنع في الأندلس النسيج الحريري الذي انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس[3]، ومن المدن المهمة في مجال الصناعات النسيجية مدينة المرية[4]، التي عُرف بها صناعة الحلل الموشية النفيسة[5]،كما عُرف بها صناعة الديباج وفي هذا يذكر الزهري: "وفيها كان عمل الديباج المحكم الصنعة مثل المرنجات المعروفة بالعداديات وثياب السندس الأبيض وهو ديباج أبيض كله، لا يخفى على أحد من صناعته شيء، وفيها استنبطت ثياب المعمّة المعروفة بالخلدي ليس في ثياب الحرير كلها أتم منها مجالا ولا جمالا لذلك سميت بهذا الاسم وهو مشتق من الخلد، وفيها صُنع كل شيء حسن من الأثاث، ومن جميع الأشياء المحكمة، وأهلها كلهم رجالا ونساء صناع بأيديهم وأكثر صناعة نساءهم الغزل الذي قارب الحرير في سومه وأكثر صناعة رجالهم الحياكة "[6]، أما مالقة ففيها من ضروب صناعة نسيج الوشي[7] العجائب[8]، وقد استُخدمت هذه الصناعة في تزيين البسُط التي كانت تصدر لبلاد المشرق، والستائر الرائعة المنظر التي تغطي الحيطان في المنازل[9].

وكان من أهم مراكز الصناعة النسيجية أيضا قرطبة[10] والمرية التي يقدر المقري(ت1041هـ)عدد الأنوال فيها في عصره بنحو خمسة آلاف وثمانمائة نول[11].

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج3، ص151.

[2] شنترين: مدينة معدودة في كور باجة، وهي مدينة على جبل عال، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة، لها بساتين كثيرة وفواكه، أنظر:الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت،1984م، ص 346.

[3] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص349.

[4] مدينة على حافة نهر الزقاق، بها بر فضي وساحل تبري، وبحر زبرجدي، أسوارها عالية، وقلعتها منيعة شامخة، ويُعمل بها من الحرير ما يفوق معمول غيرها، انظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص177.

[5] ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: صلاح المنجد، ط1، دار الكتاب الجديد، د.م ، 1968م، ص58.

[6] الزهري: كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمد حاج صادق، د.ط ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، د.ت، ص 101-102.

[7] الوشي: من أفخر أنواع الرداء اليوسفي، أنظر: ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، د.ط، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1994م، ص161.

[8] ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ج1،ط3، دار المعارف، القاهرة، 1955م، ص424.

[9] ابن حزم وآخران: المصدر السابق، ص59.

[10] تقع شرقي مملكة اشبيلية، وهي مدينة حصينة بسور ضخم من الحجر ، بلغت عدة مساجدها ألف وستمائة مسجد، وتسع مائة حمام، بنى الناصر الأموي في غربيها مدينة الزهراء، انظر: أبي الفداء: تقويم البلدان، د.ط ، دار صادر، بيروت، د.ت، ص177.

[11] المقري: المصدر السابق، ج3، ص163.

ومن الصناعات التي ازدهرت في الأندلس صناعة الزجاج و التي اشتهرت بها مالقة[1] والمرية، وخاصة صناعة الأكواب والكؤوس التي تعلق في الثريات التي توضع في المساجد والقصور[2].

كما تقدمت صناعة الأسلحة في الأندلس، وأنتجت كميات كبيرة ويساعد على ذلك كثرة الحروب التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم وكذلك التي خاضوها ضد بعضهم البعض، وقد وجدت أنواع شتى من الأسلحة وعلى رأسها السيوف والرماح والدروع[3].

وعلى صعيد الصناعات المعدنية ظهرت صناعة التماثيل والتحف المعدنية خاصة التي كانت تزين قصور الزهراء[4].

وبرز من المدن التي كانت لها أثر بارز في الصناعات الغذائية مدينة شريش[5]، والتي عرفت بضخامة أسواقها، وتميزت بصناعة أجود أنواع الجبن، حتى قيل من لم يدخلها ولم يأكل فيها المجبنات فهو محروم[6].

هذا وقد شهدت صناعة الخزف تطورا فريدا في الأندلس، ففي عهد الخلافة الأموية عرف نوع من هذا الخزف باسم خزف مدينة الصحراء، أو خزف مدينة ألبيرة[7]، كما ازدهرت في الأندلس صناعة الفخار[8].

- التجارة:

كان لموقع الأندلس على البحر المتوسط، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربي أثر كبير في نشاط التجارة عن طريق الموانئ الأندلسية المتعددة التي تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية مثل: ميناء اشبيلية[9] الذي كان يعد أعظم موانئ الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوربا كالقطن والزيتون والأرز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك[10].

[1] اسمها القديم رية، وهي مدينة على شاطئ البحر، كثيرة اللوز والتين، حسنة عامرة، يُحمل تينها إلى مصر والشام والهند لشهرته، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس،ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص177-179.

[2] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص353.

[3] نفسه، ص353-354.

[4] ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س كولان وليفي بروفنسال، ج2، ط2، دار الثقافة بيروت، 1980م، ص231.

[5] شريش: من كور شذونة بالأندلس وهي على مقربة من البحر، يجود زرعها ويكثر ريعها، أنظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص102.

[6] المقري: المصدر السابق، ج1، ص184.

[7] البيرة: كورة بالأندلس كثيرة الأنهار، أنظر: الرّشاطي وبن الخرّاط : الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق: ايميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، د.ط،المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1990م، ص17.

[8] كولان .ج.س: الأندلس ،ترجمة : إبراهيم خورشيد وآخران، دار الكتاب اللبناني ،بيروت، 1980م،ص179.

[9] من قواعد الأندلس تقع غربي مملكة قرطبة، بينها وبين قرطبة أربعة أيام ، معنى اسمها المدينة المنبسطة، انظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص175.

[10] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص360.

كما حظيت مهنة التجارة بكثير من التشجيع[1]، ومن الأمور التي ساهمت في ازدهار النشاط التجار بتنظيم الأسواق وذلك بفرض رقابة عليها وعلى المكاييل والأوزان، وقد بلغت إيرادات الدولة أيام عبد الرحمن الناصر(12.045000)دينار ذهبي[2].

ومما يدل على اتساع النشاط التجاري كذلك ضخامة أعداد الحوانيت والتي بلغ عددها زمن ابن أبي عامر[3]، حوالي(80455)حانوت وذلك في قرطبة وحدها[4].

وكانت أسواق قرطبة من أغنى الأسواق، ولا يعرف في الدنيا شيء من التوابل أو العطور، أو المنسوجات الفاخرة أو البسط والزرابي البديعة، أو آلات اللّهو إلا وقد جلبت إلى أسواقها[5].

ولم يقتصر النشاط التجاري في الأندلس على التجارة الداخلية فقد تجاوزها لتتمتع الأندلس بعلاقات تجارية خارجية، وخرجت التجارة عن نطاق الأرض الأندلسية إلى الأراضي الفرنسية عبر طريق بري، واشتهرت هذه الطريق بتجارة ضخمة من الرقيق[6].

وقد شهدت موانئ المرية[7] ومالقة تبادلا تجاريا مع عدة أقطار، ودخل الأندلس العديد من التجار المغاربة والمشارقة حاملين معهم بضاعة بلادهم، بعد ما وجدوا في قرطبة وغيرها من المدن أسواقا نافقة وتجارة لا تبور[8].

كما غزت البضائع الأندلسية في عهد الحكم الثاني (ت366هـ)[9] أسواق كثير من المدن الأوربية مثل: بوردو، وروان الفرنسية وإترخت الهولندية وشلازفيك الدنمركية،

---

[1] مونتغمري وات: في تاريخ اسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998م،ص61.

[2] وول ديورانت : المرجع السابق ،ج4،ص253-254.

[3] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري أمير الأندلس في دولة المؤيد بالله هشام بن الحكم المستنصر بالله ،أصله من الجزيرة الخضراء ولسلفه بها قدر ونباهة ، قدم قرطبة شابا فطلب بها العلم والأدب وسمع الحديث، وكانت له همّة تُرمى بها المرامي، فضمِن محمد بن أبي عامر للصبح أم هشام سكون الحال و زوال الخوف واستقرار الملك لابنها، على أن يُجعل له قود الجيوش فمازال يبطش بأعدائه ويسقط من فوقه من قهره واستيلاءه، إلى أن أصبح الخليفة حينئذ- هشام بن الحكم- مغلوب على أمره فأصبح هو الخليفة الفعلي للأندلس، كان مولده سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ووفاته سنة اثنتين و تسعين وثلاثمائة هجري،أنظر:ابن الأبّار: المصدر السابق، ج1، ص268-269.

[4] المقري: المصدر السابق، ج1، ص541.

[5] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م، ص8.

[6] مونتغمري وات: المرجع السابق، ص180.

[7] كانت المرية أكبر مركز تجاري منذ عصر الخلافة فوصفت بأنها "باب الشرق ومفتاح الرزق"، أنظر:أبي الفداء: تقويم البلدان، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت، ص177.

[8] خليل إبراهيم السامرائي وآخران: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، د.ت، ص180.

[9] تولى الخلافة بعد أبيه عبد الرحمان الناصر وهو ابن سبع وأربعين سنة، وقيل ابن ثماني وأربعين سنة وشهرين ويومين، وذلك في سنة خمسين وثلاثمائة، وتوفي لليلتين خلتا من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، كان حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوفا بالعلوم، حريصا على اقتناء دواوينها، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان، انظر: ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص200-201.

مصدرة لها الزيت الأندلسي، والتين والخمور، وحجر الشبة الذي يستخدم في الدباغة وأنواعا عدة من التوابل[1].

ولم تقف تجارة الأندلس الخارجية عند دول الجوار، بل تجاوزتها إلى بلاد بعيدة فهذه مدينة مالقة اشتهرت بتصدير الفخار المذهب إلى أقاصي البلاد[2].

يستنتج مما سبق أن الأندلس قد شهدت نشاطا كبيرا في المجالات الاقتصادية بفضل ثروات طبيعتها وكذلك الاهتمام والتشجيع الذي حظيت به مختلف الأنشطة الاقتصادية مما أفرز لها وضعا اقتصاديا متماسكا استطاع من خلاله أفراد المجتمع الأندلسي خاصة طبقة الحكام والملاك والمحيطين بهم أن يكوّنوا ثروات مادية هائلة أفضت إلى حياة ناعمة ومترفة فيما بعد.

2- موارد بيت المال

- **الخراج:**

هو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة أو عُدل عن تقسيمها على المحاربين، وكانت بأيدي أصحابها بعد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ بأرض السواد، كما يؤخذ على الأرض التي صلح عليها أهلها وتُركت لهم لقاء خراج معلوم[3].

ونظرا لأهمية الخـــراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشـــؤون الري والزراعة، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور وغير ذلك[4]، ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت بسبب السيول فقام هشام[5] بن عبد الرحمان الداخل(ت 180هـ)[6] بتجديدها، وأنفق في ذلك أموالا عظيمة[7]، وبفضل اهتمام الأمويون بالأراضي الزراعية كثرت حصيلة الخراج وارتفعت جباية الأندلس.

---

[1] زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993م ، ص21.

[2] ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، تحقيق: طلال حرب، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت،2007م ،ص679.

[3] حسن إبراهيم حسن :المرجع السابق ،ج1،ص375.

[4] حسين يوسف دويدار:المرجع السابق،ص367.

[5] ولي الخلافة بالأندلس بعد أبيه يوم الأحد غرة جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين ومائة ،وبقرطبة ولد هشام لأربع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومائة، ويعرف بالرضا لعدله وفضله، أنظر: ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص42.

[6] هوعبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو المطرف (الأمير) الأموي الداخل إلى الأندلس يقال له صقر قريش، ولد سنة ثلاث عشرة ومائة بدير حسينة، من عمل دمشق، وقيل بالعلياء من عمل تدمر، أمه أم ولد اسمها راح بربرية، ومازال عبد الرحمان بالشام إلى أن ظهرت الدولة العباسية، وقتل من قتل من بني أمية وفر من نجا منهم فكان هو من بينهم، ففر من الشام إلى المغرب ومنها إلى الأندلس شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة، وكان أمير الأندلس إذ ذاك أبو زيد يوسف بن عبد الرحمان بن أبي عبيدة نافع الفهري، فغلب عليه ومصّر الأمصار وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين، وأقام ملكا بحسن تدبيره وشدة شكيمته، ولم يزل مظفرا إلىأن توفي يوم الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة بقرطبة أنظر: ابن عذارى: المصدر السابق ،ص47-48 ؛ محمد اليعلاوي: " تراجم أندلسية منتقاة من كتاب المقفى للمقريزي"، مجلة دراسات أندلسية ، ع01، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 1988م، ص82-86.

[7] المقري: المصدر السابق، ج1، ص337.

ففي أوائل عصر الإمارة (138هـ-316هـ) بلغت جباية الأندلس على الأراضي المزروعة ثلاثمائة ألف دينار، وبلغ مقدار جباية أقاليم قرطبة مائة وعشرون ألف دينار[1]، وزاد دخل الدولة وتواصل ارتفاعه حتى بلغت الجباية في عهد الخليفة الناصر(ت350هـ) خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار[2].

وعلّق ابن حوقل على هذا المبلغ قائلا: "ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الإسلام شبه"[3]، بل ويبالغ في مقدار الخزانة فيقول: " وسمعت غير محصل ثقة ممّن يستبطن جبايات البلد وحاصل عبد الرحمان بن محمد، أن لديه مما أنتجه له جمعه من الأموال إلى سنة أربعين وثلاثمائة ما لم ينقص من عشرين ألف ألف دينار إلا اليسير القليل دون ما في خزائنه من الأموال من المتاع والحلي "[4]، وعندما توفي الخليفة الناصر كان في خزائنه من الأموال خمسة آلاف ألف ألف دينار[5].

ووصل حجم جباية الحبوب التي استمرت تؤخذ عينا لدرجة أن المنصور بن أبي عامر لحقه العجب بذلك حتى قال: "أنا أكثر طعاما من يوسف الخازن"[6]، وذلك لأنه ترك عند وفاته في خزائنه من الأموال نقدا أربعة وخمسين بيتا لا نعلم مجموع مبالغها[7] .

وعلى الرغم من ضخامة المبالغ المذكورة، وهو ما يدعو إلى الشك، إلا أن ابن خلدون يحاول أن يزيل هذا الشك بقوله: " ولا تنكرنّ ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله، فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار، وليس ذلك من الصواب، فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن أدرك رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها"[8].

- **الجزية:**

هي مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[9]، وهي تسقط بالإسلام بخلاف الخراج[10].

---

[1] يحي عباسي: الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس، ج2، د.ن، 2000م، ص546.
[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231-232.
[3] ابن حوقل: صورة الأرض، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص107.
[4] نفسه، ص107.
[5] المقري: المصدر السابق،ج1، ص379.
[6] يحي عباسي: المرجع السابق،ج2، ص547.
[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص301.
[8] ابن خلدون عبد الرحمان: المقدمة ،د.ط، دار الفكر، بيروت، 2007م، ص192.
[9] سورة التوبة : الآية 29.
[10] حسن إبراهيم حسن: المصدر السابق، ج1، ص382.

وتعد الجزية من الموارد الثابتة لخزانة الدولة في الأندلس، لكثرة النصارى اليهود في الأندلس، فمن الأحداث الدالة على تسجيل أعداد نصارى الذمة في كشوف، فقد اتهم مسيحي قرطبة خوستيوجيس أسقف مالقة في القرن الثالث هجري بأنه قدم أسماء الفلاحين المسيحيين في أسقفيته، لتُسجل أسمائهم في كشف دفع الجزية، وفعل مثله الأسقف الفيرا بمنطقة غرناطة[1]، وهذا يدل على كثرة الفلاحين النصارى في هذه المناطق[2].

- **الفيء والغنيمة :**

الفيء هو ما وصل المسلمين من أعدائهم بدون قتال، بخلاف الغنيمة التي تطلق على كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم بالقتال[3]، من الأسرى والسبي والأموال والأرضين[4].

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم، ويرد الباقي إلى بيت المال، ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون في الأندلس ضد الممالك المسيحية في شمال أسبانيا، وضد بلاد الفرنجة، فقد كثرت الغنائم وخاصة في عهد الخليفة الناصر، وفي عهد المنصور بن أبي عامر الذي قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم في أي منها، وعاد منها بغنائم كثيرة [5].

ويروي ابن عذارى المراكشي (ت بعد 712هـ) أنه في عهد عبد الملك بن المنصور العامري، خرج الناس صائحين: "مات الجلاّب مات الجلاّب"[6]، يقصدون كثرة الغنائم والسبايا التي كان المنصور يجلبها من غزواته و التي أتخم بها المجتمع الأندلسي لدرجة أن الناس في عهده كانوا يجهزون بناتهم بمبالغ كثيرة ومظاهر فخمة تعبيرا عن الثراء الذي كان يعيشه المجتمع[7].

---

[1] غرناطة:هي أقدم مدن كورة البيرية من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم، بينها وبين البيرية أربع فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا، أنظر: الحموي : معجم البلدان، ج4، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977م ،ص195.

[2] ميكل دي ابيالزا: "المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس، " الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ص246.

[3] الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1983م، ص161.

[4] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص370.

[5] نفسه، ص371.

[6] ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص13.

[7] عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص18.

- **العشور[1]:**

وهي الأموال التي كانت تجبى من التجار الأجانب، الذين يقدمون بتجارتهم فكانوا يدفعون عشر قيمتها[2]، ولا شك أن هذا المورد كان يمثل دخلا كبيرا للأندلس[3].

- **الزكاة :**

الزكاة لغة هي الطهارة والنماء[4]، ووجوبها أمر مقطوع به في الشرع[5]، وهي ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم[6].

كان الفلاحون في الأندلس يدفعون عُشر ما تخرجه الأرض إذا اكتمل نصابها الشرعي، إذا رويت سيحا أو بماء المطر، فإذا رُويت بآلات الري كان عليها نصف العشر[7]، وكانت الزكاة متروكة للأهالي، ولم تكن وظيفة تقوم بها الدولة، ولكن الحكم الربضي[8] **"جعل العشر ضريبة على الناس بعد أن كان مصروفا إلى أماناتهم "**[9].

ويتضح ذلك من البيان الذي قدّمه العُذري (ت 478هـ) عن القرى التي تدفع الأعشار في قرطبة[10].

- **المكوس و المغارم:**

كان على الفلاحين مغارم ومكوس متنوّعة، منها المغارم وهي تسمية عامة لضريبة مفروضة على القرى في الريف منذ عصر الإمارة (138-316هـ) في الأندلس، ويبدو أن الخليفة هو الذي يفرضها على الناس إذ سميت بالمغارم السلطانية [11]، وتُدفع عينا على أهل الإقليم الواحد مثل ما وقع من تحمّل إقليم شرق اشبيلية من مغارم في عهد المستنصر[12]، وقد تضمّر الناس من هذه المغارم، وإذا ضاق الحال بهم سُمح لهم بدفع المغارم على أقساط[13].

كما كانت هناك مكوس على الفلاّحين لصالح جيش الأندلس، ومنها ضريبة الحشود والبعوث، وتدفع نقدا أوعينا على أهل الريف والمدن، وتدفع مرة واحدة في العام أثناء

---

[1] يرجع نظام العُشور إلى عهد عمر بن الخطاب ﷺ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب (أي بلاد الكفار) فيأخذون منهم العُشر، فكتب عمر: "خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين"، أنظر: حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج1، ص381.

[2] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص371.

[3] نفسه، ص372.

[4] ابن منظور: المصدر السابق، ج21، ص1849.

[5] الشوكاني: نيل الأوطار، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م، ص548.

[6] يوسف القرضاوي: فقه الزكاة، ج1، ط20، مكتبة رحاب، الجزائر، 1988م، ص53.

[7] يحي عباسي: المرجع السابق، ج2، ص557.

[8] تولى الإمارة بعد أبيه سنة ثمانين ومائة، كان شجاعا باسلا، خطيبا مفوها، وشاعرا محوّرا، تُحذر صولاته، وتُستندر أبياته، وهو الذي أوقع بأهل الربض سنة(202هـ)، فنسب إليه، أنظر: ابن الأبار: المصدر السابق، ج1، ص43.

[9] ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص5.

[10] حول هذه الأعشار، انظر: العذري: نصوص عن الأندلس، تحقيق: عبد العزيز الأهواني، د. ط، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت، ص124-125.

[11] يحي عباسي: المرجع السابق، ج2، ص561.

[12] ابن عذارى: المصدر السابق،ج1، ص226.

[13] يحي عباسي: المرجع السابق، ج2، ص561.

التجهيز لغزو الصائفة، وألغى الخليفة الحكم المستنصر سدسها عن جميع الرعايا بكور الأندلس سنة (364هـ / 974م) بمناسبة شفائه[1].

أما ضريبة النّاض والطَّبل العام، فتؤخذ نقدا، والثانية مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية[2].

وهناك ضريبة القطع والمفارقة[3]، ويقدّمها سادة النواحي والمدن المنتزية، فتتركهم الإمارة مقابل أداء هذه الغلات[4].

هذا بالإضافة إلى الضرائب المفروضة على الدواب وعلى كل ما يباع في الأسواق، وتقدّر على حسب قيمة الشيء المباع، فقد ذُكر أن الخليفة الحكم المستنصر وكل من أحصى له ما يباع بقرطبة من السمك المملح المسمى بالسردين خاصة المجلوب من الساحل، فانتهى البيع فيه في يوم واحد إلى عشرين ألف دينار دراهم[5]، ولا شك أن هذه المكوس قد أصبحت تمثل موردا خصبا للدولة[6].

- **الأحباس (الأوقاف):**

مثلت الأحباس مصدرا غير مباشر من مصادر الدخل أيضا، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العامة، حيث يحبس أصحاب هذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحسان، وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية، ورعاية طلاّب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك[7].

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر(ت 366هـ) الذي أشار ابن عذارى فقال: " وفي صدر جمادى الأولى (364هـ) أنفذ الخليفة تحبيس حوانيت السرّاجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة وأشهد القاضي محمد بن إسحاق[8] في هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه، فعظمت به المنفعة، وحلت المنقبة، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباءهم يعرّضونهم لوراثته "[9].

وقد بلغ من كثرة الأحباس أن كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأحباس، كما يتضح من النص التالي الذي أورده ابن عذارى في حوادث سنة 353هـ، حيث يقول: عن زيادة المستنصر في مسجد قرطبة الجامع: " فأمر المستنصر بالله بتوسعته

[1] نفسه، ص562.

[2] العذري: المصدر السابق، ص124-127.

[3] مبالغ مالية معينة تفرضها الدولة على المنتزين (الثوار) مقابل إبقائهم في مناطقهم وعدم مقاتلتهم، على أن يؤدوا هذه المبالغ سنويا، وقد يلتزم الابن مكان أبيه على تلك الناحية أداء الجباية اللازمة على منطقته، انظر: محمد عبده حتاملة: موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ج5، ط1، دار المدار الثقافية، عمان، 2009م، ص204.

[4] نفسه، ص12.

[5] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، 1956م، ص104.

[6] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص372.

[7] نفسه، ص374.

[8] وُلي القضاء سنة(355هـ) بعد وفاة القاضي منذر بن سعيد البلّوطي (قاضي القضاة) على عهد الخليفة الناصر، أنظر: النبّاهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة التراث العربي، ط، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ص75.

[9] ابن عذارى: المصدر السابق،ج2، ص349.

والزيادة فيه، فأتى القاضي منذر بن سعيد (قاضي القضاة)[1] إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأحباس والفقهاء العدول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا في الزيادة فيه"[2].

من خلال النص الأخير الذي أورده ابن عذارى يُفهم بأن أموال الأوقاف قد صُرفت في وجه غير وجوه صرفها المعتادة كرعاية طلاب العلم و المرضى والمعوزّين وهذا ما نستشفه من قوله: " بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا في الزيادة فيه " أي أنها صرفت في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على كثرة أموال الأوقاف زمن الخليفة المستنصر بالله .

وخلاصة القول أن هذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخلا كبيرا للدولة، ومما يدل على تزايد هذه الموارد من عهد إلى آخر أن الجباية مثلا في عهد الحكم ابن هشام الربضي كانت مائة وعشرة آلاف وعشرون دينار، ومن القمح أربعة آلاف وستمائة مد، ومن الشعير سبعة آلاف وستمائة وسبعة وأربعون مد[3]، وبلغت في عهد ابنه عبد الرحمان الأوسط [4] ألف ألف دينار في السنة[5]، وارتفعت في عهد عبد الرحمان الناصر إلى خمسة آلاف ألف وأربعمائة وثمانين ألف دينار، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التي لا يحصيها ديوان[6]، وقد ذكر ابن حوقل: " أن الناصر(ت350هـ) استطاع أن يدخر حتى سنة (340هـ)نحو عشرون مليون دينار، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع توفير هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني(358-369هـ)"[7].

ومهما كانت صحة هذه الأرقام من عدمها فإن موارد بيت المال قد تضاعفت من عصر إلى عصر، وأصبحت تمثل مصدرا هاما من مصادر الثروة في الأندلس.

[1] هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن قاسم بن عبد الملك بن نجيح النّفزي قاضي القضاة على عهد الخليفة عبد الرحمان النّاصر (300-350هـ)، تولى القضاة سنة 339هـ، كان خطيبا فقيها، شاعرا فصيحا، وكان مذهبه في الفقه مذهب النظّار والاحتجاج وترك التقليد، كان عالما باختلاف العلماء، من فضائله لم تحفظ له قضية جور، ولا جربت عليه في أحكامه زلّة، له كتب مشهورة في القرآن والفقه والرد، توفي سنة 355هـ، أنظر: النباهي: المصدر السابق، ص66. ومحمد الخضر حسين: علماء الإسلام في الأندلس، تحقيق: صالح العود، ط1، دار ابن حزم، بيروت،2011م، ص61.

[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص336.

[3] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص372.

[4] هو رابع الأمراء الأمويين بالأندلس، ولد في طليطلة، كسا الخلافة أبهة الجلالة فشيد القصور وجلب الماء العذب إلى قرطبة وبنى له مصنعا كبيرا يرتاده الناس، كما بنى المساجد، وضرب الدراهم باسمه ولم يكن ذلك فيها منذ فتحها العرب كانت مدة ولايته 31 سنة وثلاثة أشهر، وكانت وفاته بقرطبة، أنظر: خير الدين الزركلي: الأعلام، ج3، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002 م، ص305.

[5] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق ،ص376.

[6] المقري: المصدر السابق، ج1،ص379.

[7] ابن حوقل: المسالك والممالك، د.ط، مطبع بريل، ليدن، 1872م، ص77.

ومن مجموع دخل الأنشطة الاقتصادية وكذا موارد بيت المال تشكلت في الأندلس ثروة كبيرة أدت فيما بعد إلى حياة ناعمة ومترفة خاصة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين.

الفصل الثاني: حياة الترف والبذخ على عهدي الخلافة والدولة العامرية (300-399هـ)

1- مظاهر الترف الاجتماعية:

أ- كثرة الجواري و الرقيق

- **الجواري**
- **الرقيق**

ب- الموسيقى و الغناء

ج- الطعام و الشراب

د- اللباس

هـ- الأعراس والاحتفالات

2- مظاهر الترف العمرانية:

أ- العمارة المدنية

- **الزهراء**
- **الزاهرة**

ب- العمارة الدينية

- **المسجد الجامع بقرطبة**

أسلفنا القول في الفصل السابق أن للحالة الاقتصادية انعكاس كبير على الحياة الاجتماعية، وقد رأينا أن مصادر الثروة في الأندلس كانت كبيرة ومتنوعة مما أدى إلى امتلاء خزائن الدولة بالأموال، الشيء الذي انعكس بدوره على حياة المجتمع الأندلسي لاسيما أفراد الطبقة الخاصة من الأمراء والخلفاء، حيث حوّلوا حياتهم إلى عيشة ناعمة وتفننوا في شتى صنوف الترف في جميع مناحي الحياة.

1- مظاهر الترف الاجتماعية:

أ- كثرة الجواري والرقيق:

- الجواري:

لعل أول مظاهر الترف التي عرفها الأندلسيون هي ظاهرة الاستكثار من اتخاذ الجواري سواء للمتعة أو للخدمة، فاكتظاظ قصور الأمراء بالعبيد والخدم والإماء والجواري يعتبر مظهر من مظاهر الترف[1].

وقد كثرت الجواري في المجتمع الأندلسي نتيجة لكثرة الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية في اسبانيا وبلاد الفرنجة، وكذلك عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى من أوربا وغيرها[2]، حتى زخرت بهم القصور[3]، بحيث لم تعرف المصادر الأندلسية واحدا من حكام بني أمية من أمة حرة[4].

والجدير بالذكر أن الفترة الممتدة بين سنتي (300-399هـ /912 – 1008م) تعتبر من أخصب الفترات، فنرى الأندلس قد مُلأت سبايا من بنات الروم الأمر الذي أدى إلى رخص أثمان الجواري[5]، فقد ذكر أنه: " قد نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال، فلم تساو أكثر من عشرين دينار"[6]، فأقبل الناس على الزواج من سبايا الأسبان تاركين بنات الأحرار، مما دفع والد كل فتاة إلى المغالاة في تجهيز ابنته و لولا ذلك لم يتزوج أحد حرة[7].

---

[1] إبراهيم القادري بوتشيش: " أثر الأزمة الأخلاقية في سقوط دولة الإسلام بالأندلس"، بحوث ندوة الأندلس، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية،1994م، ص21.

[2] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق ،ص319.

[3] خالد الجبالي: الزواج المختلط بين المسلمين و الأسبان -من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة-(92-399هـ)، د.ط، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت، ص94.

[4] ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، ج2، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، 1987م، ص104.

[5] خالد الجبالي: المرجع السابق ،ص50.

[6] المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، د.ط، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، د.ت، ص84.

[7] نفسه، ص84 ؛ محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس، ط1، منشورات دار أسامة، د.م، 1984م، ص17.

ومما يدل على كثرة الجواري في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري قول المراكشي (ت 646هـ)عن المنصور بن أبي عامر:" وملأ الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم"[1]، ويذكر ابن الأبّار عنه أيضا أنه في إحدى غزواته لمملكة جليقية[2] عاد بأربعة آلاف سبية[3].

هذا وقد عجت قصور الأمراء والخلفاء بالحرائر والإماء من الأسبانيات فما بالك بالعامة! والناس كما قيل على دين ملوكهم، فقد ذُكر أن " عدّة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار ست آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة "[4]، كل هذا ناتج عن تجارة الجواري التي تعتبر نتيجة للمصدر الأول وهو الغزو، ذلك أن معظم الجواري اللواتي كن يُبعن في الأسواق ما هنّ إلا من نتائج الحروب، وقلّة كان يتم شراؤهن من الفرنجة المتصلين بأرض الأندلس الذين قيل فيهم: " بأنهم أمة أشد بأسا، وأحد شوكة، وأعظم إمدادا، وأكثر خلقا، يحاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخالفتهم إياهم في الديانة، فيسبونهم ويبيعونهم بأرض الأندلس "[5].

والملاحظ أن أثمان الجواري كانت ترتفع لاعتبار العلم والجمال، لا لاعتبار الحسب والنسب، فالجارية المتعلمة أعلى ثمنا من الجارية الأميّة، فقد ذُكر عن الإمام الفقيه ابن حزم[6] أنه قد تلقى علومه الأولية في بيته، حيث طلب والده إلى بعض جواريه أن يقمن بتلقينه الأشعار والأخبار، وفي هذا يقول: " وهُن علمنني القرآن وروّينني كثيرا من الأشعار، ودرّبنني فن الخط " [7].

وذُكر عن المتطبّب محمد بن الكتّاني[8] (ت 420هـ -1029م) أنه أوجد سوقا لقيّانه يُعلمهن الكتاب والإعراب، وغير ذلك من فنون الآداب، ثم يبعهن بأغلى الأثمان، فقد ورد عنه أنه باع قينة بثلاثة آلاف دينار[1].

---

[1] المراكشي: المصدر السابق ،ص83.

2 بلدة من بلاد الروم متاخمة للأندلس، وهي مدينة جليلة معظمة عند الروم، انظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص185.

[3] ابن الأبار: المصدر السابق ،ج1،ص216.

[4] ابن عذارى : المصدر السابق، ج2، ص232 ؛ المقري: المصدر السابق ،ج1،ص567.

[5] المقري: المصدر السابق، ج1، ص145.

[6] هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي، يكنى أبو محمد، ولد سنة (384هـ / 944م) كان فقيها، ووزيرا لعبد الرحمان المستظهر بالله بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر لدين الله، بلغت عدد مؤلفاته نحو أربعمائة مجلد تشمل على قريب من ثمانين ألف، توفي سنة ست وخمسين وأربع مائة، انظر: صاعد: طبقات الأمم، د.ط، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912م، ص77-79 ؛ محمد الحسين: ابن حزم الظاهري الأندلسي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م، ص46-48.

[7] ابن حزم: المصدر السابق،ج1، ص166.

[8] ابن الكتاني: أبو عبد الله بن الحسن المِذحجي، له مشاركة قوية في علم الأدب والشعر، وله تقدم في علوم الطب والمنطق، أنظر: الحميدي: جذوة المقتبس في ذك ولاة الأندلس، د.ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966م، ص49.

وقد تعددت صفات الجارية المبيعة، ويبدو أنه كان يطلق على الجواري تسميات عديدة منها: السُريّات[2]، والقينات أو القيّان[3]، و الوصائف[4]، كما ساقت لنا المصادر كلمة ستر، وهي الكلمة التي تطلق على المكان الذي تستر فيه الجواري في قصور الحكّام[5]، ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على القيّان المغنيات[6].

والجدير بالملاحظة أن الجواري كُن يشملن على نوعين، جواري الخدمة، وهؤلاء جاوزن سنّ الشباب، وجواري اللّذة[7]، ذلك النوع الذي كان يتمتع بمكانة كبيرة كونه كان محاطا بالخدم، وكون بعضهن أتُخذن للإنجاب فكان واجبهن جلب المتعة والسرور إلى نفوس أسيادهن، فقد كُنّ على وجه العموم يبحثن عن حب السيد ورضاه، ولا شك أن عددهن الكبير كان يجعل مهمتهن صعبة الأداء[8].

ومجمل القول أنه بالرغم مما كان لبعض الجواري من ايجابيات على المجتمع الأندلسي حيث كن يعلمن الأبناء وهم صغار في بيوت أسيادهن وهذا ما رأيناه مع ابن حزم، إلا أن كثرتهن كان لابد لها أن تترك سلبيات عدة على المجتمع الأندلسي منها:

ما عانى منه الأبناء نتيجة معاشرتهم الجواري منذ نعومة أظافرهم، فخرج من بينهم جيل كثير الظن بالنساء، وخير مثال على ذلك ابن حزم الذي شبّ في القصور وتحت رعاية الخدم وبين جموع النساء من القيّان والجواري، فتعرّف من خلالهن على أسرارهن، وحيلهن فنشأ صبيا سريع التأثر سيء الظن بالمرأة [9].

كذلك كان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر(366-399هـ /976-1008م) الذي أجبر على الإقامة بين مناغاة النساء والجواري من قبل محمد بن أبي عامر للحيلولة دون تمكنه من الوصول إلى السلطة[10]، ولم يقتصر خطرهن على المنعمين من أبناء الشعب الأندلسي، بل انتقل إلى العامة وذلك عن طريق اللجوء إلى دار البنات[11]، تلك البيوت التي كانت تقدم

---

[1] ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ق3، مج1، دار الثقافة، بيروت، 1997م،ص319-320.
[2] المقري: المصدر السابق، ج1، ص523.
[3] ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص112.
[4] خالد الجبالي: المرجع السابق، ص100.
[5] الحميدي: المصدر السابق، ص71.
[6] خالد الجبالي: المرجع السابق، ص100.
[7] ابن حزم: المصدر السابق،ج1، ص207-208.
[8] خالد الجبالي: المرجع السابق، ص96.
[9] ابن حزم: المصدر السابق، ج1،ص70.
[10] المقري: المصدر السابق، ج1، ص591.
[11] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص81.

لروادها من أسباب اللّهو والمجون والخلاعة الشيء الكثير، وقد يكون أحد أسباب ذهابهم إلى تلك البيوت عدم قدرتهم على شراء الجواري[1].

كما نجد الكثير من المتاعب التي خلفتها الجواري، وخصوصا عند بعض الأسر الغنية، فقد ذُكر عن أحد الأشخاص أنه ذهب عقله بسبب تعلّقه بجارية أخيه التي باعها لغيره[2]، ثم نسمع خبرا ذا علاقة فيما ذُكر عن مروان بن عبد الرحمان بن مروان بن عبد الرحمان الناصر المعروف بالطليق[3]، الذي كان قد تعشّق جارية ربّاها أبوه معه، فاستأثر بها الأب دون الابن، فاشتدّت غيرته، فانتضى سيفا، وأنتهز خلوة أبيه معها فقتله، وأُخذ إلى السجن وذلك في أيام محمد بن أبي عامر (ت 392هـ /1001م)[4]، هذا وقد كن بعض الجواري متجسسات لحساب الأعداء[5].

- **الرقيق:**

أطلق على الرقيق المجلوب من أوربا في القرن الرابع الهجري(العاشر الميلادي)، لفظ الصقالبة[6]، فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ومن ايطاليا ومن قطلونية وجيليقية في شمال أسبانيا[7].

وقد أطلق الجغرافيون هذا الاسم في العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار، وهم أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود[8]، ولقد دأبت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبي الكثير من أفراد تلك الشعوب، وبيعها إلى المسلمين في الأندلس ولهذا سُموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد، ثم حُوّر اللفظ في العربية إلى صقالبة، وتُوسع في استعماله فأصبح يُطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من أية أمة مسيحية[9]، وكان أغلبهم يُؤتى بهم أطفالا من حوض الدانوب، وبلاد الفرنجة، ويربون تربية عسكرية، ويدربون على الخدمة في القصور، وكان المُستخدمون منهم في القصور يتم خِصاؤهم للقيام بخدمة الحريم، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ولهم معامل خاصة للخصاء في أوربا - وخاصة فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة

---

[1] خالد الجبالي: المرجع السابق، ص101.
[2] ابن حزم: المصدر السابق، ج1،ص242-243.
[3] هو مروان بن عبد الرحمان بن مروان بن عبد الرحمان الناصر، أبو عبد الملك يعرف بالطليق من بن أبي أمية، كان أديبا شاعرا مُكثرا وأكثر شعره في السجن، وهو في بني أمية كالمعتز في بني العباس ملاحة شعر وحسن تشبيه، سُجن وهو ابن ست عشرة سنة، ومكث في السجن ست عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقه من السجن ست عشرة سنة، ومات قريبا من الأربعمائة، انظر: الحميدي: المصدر السابق، ص342-343.
[4] نفسه،ص343؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،1955م،ص72.
[5] محمد سعيد الدغلي: المرجع السابق، ص45.
[6] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص51.
[7] ابن حوقل: المصدر السابق، ص106.
[8] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص52.
[9] نفسه، ص52-53.

اللورين، وكذلك في الأندلس وخاصة في مدينة خلف بجانة عاصمة إقليم البيرية، وكان معظم أهلها من اليهود[1].

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسا خاصا له، فجلب منهم خمسة ألاف وأطلق عليهم الخرس لعجمتهم[2]، ثم أخذت أعدادهم في الازدياد وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر حيث ذُكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في عهده(300-350هـ) نحو ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين[3]، فقاموا في البداية بخدمات منزلية ثم عُينوا في مناصب هامة[4]، وكان عبد الرحمان الناصر يثق بهم أكثر مما يثق بالعرب والبربر[5]، إذ نجد منهم من وصل إلى مناصب إدارية هامة مثل: نجدة الصقلبي الذي أصبح قائدا للجيش، والدري صاحب للشرطة، وأفلح صاحب للخيل، وخلف مدير الطراز سنة 313هـ، وقند حاكم طليطلة[6] سنة 336هـ[7].

كما استكثر الحكم المستنصر منهم، فاشتدت شوكتهم وكثروا في البلاط، ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام[8]، وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويون على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي و البربري، وإضعاف سيطرتهما على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان و قوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين[9].

هذا وقد استكثر المنصور بن أبي عامر هو الآخر من الرقيق الصقالبة والبربر[10]، واتخذهم حرسا خاصا له[11].

---

[1] المقديسي: المصدر السابق، ص242.

[2] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص55 ؛ بالإضافة إلى اسم الخرس فقد أطلق عليهم عدة تسميات أخرى منها: الفتيان، الخلفاء، المجابيب، الخصيان، أنظر: عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص258.

[3] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق ،ص55.

[4] عطا الله دهينه: " الأندلس في القرن الخامس الهجري"، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر،

[5] أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج3، د.ط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2010م، ص11.

[6] قاعدة الأندلس تقع على جبل عال وهي من امنع البلاد وأحصنها، تُحدق بها الأشجار من كل جهة، انظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص177.

[7] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص55.

[8] نفسه، ص56.

[9] نفسه ، ص56.

[10] عبد الحليم عويس: "العصبية القومية وأثرها في سقوط الأندلس "، بحوث ندوة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، 1994م ، ص339.

[11] وزارة الثقافة: موسوعة التاريخ الإسلامي - المسلمون في الأندلس-، د.ط، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، 2011م،ص67.

ب- الموسيقى والغناء :

ازدهر فن الغناء والموسيقى في الأندلس منذ عصر الدولة الأموية وساعد على ذلك تشجيع أمراء بني أمية وخلفائهم لذوي المواهب الفنية، واستقدام العديد من المغنيات والمغنيين من بلدان المشرق الإسلامي وخصوصا من بغداد والمدينة[1].

وقد عُرف عن الخليفة عبد الرحمان الناصر أنه استقدم مغنيات سكندريات لأول مرة إلى الأندلس، فيذكر ابن الأثير أنه في سنة (344هـ /955م-956م) جلب الخليفة الناصر عدة جواري مغنيات من الإسكندرية[2]، ولا شك أنهن أسهمن مع زميلاتهن المدنيات وغيرهن من الجواري اللاتي تعلمن على يد المغني العراقي الشهير زرياب[3].

كما يروى أن أبا الأصبغ عبد العزيز بن عبد الرحمان الناصر كان مغرما بالغناء، محبا للشراب، ولما انقطع عن الشرب سُرّ أخوه المستنصر بذلك، وتمنى أن يترك الغناء أيضا، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال: والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها[4]، كما اشتهرت أُنس القلوب جارية محمد بن أبي عامر (المنصور ت392هـ) بالغناء، وذُكر أنه غنت يوما في حضرة المنصور في شوق وحنين، وفي مجلسه الكاتب أبو المغيرة بن حزم(384-456هـ /994-1063م) فلما أكملت الغناء قال لها: قولي، واصدقي، إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين؟ فقالت: إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى، والله ما كانت إلا نظرة ولّدت في القلب فكرة فتكلم الحب على لساني، والعفو مضمون لديك عند المقدرة، ثم بكت فكأن دمعها در، فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب وعفا وصفح ووهبها لأبي المغيرة بن حزم الذي كان مولعا بها[5].

وإلى جانب المغنيين كانت هناك شخصية الزامر الذي لا يستغنى عنه في الحفلات والأعراس، ومن أشهرهم النّكوري زامر عبد الرحمان الناصر الذي كان أنيقا يلبس قلنسوة من الوشي، والثوب من الخز[6]، ويتوسط الناس في الحفل، ومنهم ابن مقيم وكان طيب

---

[1] خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994م، ص77.

[2] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص254.

[3] كان زريابُ تلميذا لإسحاق الموصلي في بغداد، ثم وقعت بينهما مجافاة، لأن زرياب أبدى من المهارة في حضرة الرشيد ما فاق به أستاذه "فسقط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ماغلب على صبره " فرأى زرياب أن لامناص من الخروج عن العراق، فخرج إلى الغرب ناجيا بنفسه من غضب أستاذه، وعرض خدماته على الحكم الربضي، فدعاه إلى القدوم عليه في قرطبة، فسار زرياب حتى بلغ الجزيرة الخضراء سنة (207هـ/ 822م)، وهناك بلغه موت الحكم، ولما ولي عبد الرحمان بن الحكم أدخله في خدمته، وفرض له عطاء قدره مائتا دينار في الشهر، وقرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين، وفرض له كذلك مائتي مد من الشعير، ومثلها من القمح، هذا إلى حدائق وقصور وهبه إياها تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار، فأقبل زرياب وأصبح موسيقي الأمير، أنظر: بالنثيا: المرجع السابق ،ص53.

[4] عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص82؛ حسين يوسف دويدار : المرجع السابق ،ص266-267.

[5] المقري: المصدر السابق، ج1، ص617-618 ؛ عمر رضا كحالة :أعلام النساء ،ج1، د.ط، مؤسسة الرسالة ،بيروت، 1959م، ص97-98.

[6] الخز: من مزايا الألبسة السلطانية وهو ذو لون أخضر، أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، ج5، د.ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915م، ص142.

المجلس وصاحب نوادر، ومن أصحاب الطنابير زُربوط الطنبوري، الذي قتل هو وقنبوط الملهي في موقعة قنتيش[1] زمن فتنة البربر مع سليمان المُستعين[2].

هذا وقد امتد أثر الغناء الأندلسي إلى الممالك المسيحية في أسبانيا ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكتاني المتطبب (ت 420هـ /1029م) قال: " شهدت يوما مجلس العلجة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغية شانجة بن غريسة ابن فرديناند وفيه عدة قينات مسلمات "[3] .

وقد وصل الأمر بالبعض إلى حد خلع ثوب الوقار، وأخذ في الرقص في المجلس[4]، فهذا المنصور محمد بن أبي عامر أمر يوما بإحضار الوزراء والندماء في مجلس أنس أعده للهو، وحضر في جملة الحاضرين أحمد بن عبد الملك بن شهيد[5]، في محفة إذ كان يعاني من نقرس لازمه، وقضى الجميع يوما لم يشهدوا في اللهو مثله، وطما الطرب وسما بهم حتى تصايح القوم وأخذوا يرقصون بالنوبة حتى جاء دور ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عباس، فجعل ابن شهيد يرقص وهو متوكئ عليه وأرتجل أبياتا وجهها للمنصور فقال :

هاك شيخ قادهُ عُذر لكـــا	قام في رقصـــته مُستهلكـــا
لم يطق يرقصها مُستثبتا	فانثنى يرقصها مُســتمسكـا
عاقه عن هزها معتـــدلا	نقرسٌ أخنى عليـــه فاتـــكـا
طرب اللّهو وقد حق لـــه	طربا أرمضه حتى اشتكـــى
من وزير فيهم رقاصـــة	قام من طيب يناغي ملكـــــا
أنا لو كنت كما تعرفنـــي	قمت إجلالا على رأسي لكـا
قهقه الإبريق مني ضحكا	ورأى رعشة رجلي فبـــكى[6].

وكان من بين الحاضرين رجل بغدادي من أصحاب ابن شهيد يُعرف بالكك، فشاهد ابن شهيد في بداية المجلس - وقد ألح عليه ألم النقرس- كلما حانت صلاة صلاها جالسا، فلما حمي الوطيس، وأنس الجليس، ودارت الكؤوس، ونسي أوجاع النقرس، وقام ذلك الصاحب الجليس يرقص، ودار الدور حتى انتهى إلى ابن شهيد فقام يرقص فلم يملك البغدادي نفسه أن قال: " لِله درك يا وزير تصلي بالقاعدة! وترقص بالقائمة!"[7].

[1] حدثت سنة 400هـ، قيل أنه قتل فيها عشرة آلاف قتيل وأزيد، أنظر: ابن بسام : المصدر السابق، ق01، مج1، ص44.
[2] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص279.
[3] ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج3، ص317.
[4] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص283.
[5] هو أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد، مفخر الإمامة وزهر تلك الكمامة، وحاجب الناصر عبد الرحمان، وحامل الوزارتين على سموها في ذلك الزمان، استقل بالوزارة على ثقلها، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مُقلها، فظهر على أولائك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج1، ص380.
[6] ابن بسام: المصدر السابق، ق 04، ج1، ص27-28.
[7] نفسه، ص28.

كما ذكر ابن عذارى أن المنصور دعا جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي إلى مجلسه ليتخلّص منه بالحيلة سنة 372هـ فقدم إليه ساقي المجلس له كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر فاستخفه الطرب، وقام يرقص، ولم يبق أحد في المجلس إلا فعل مثله[1].

هذا وقد أورد ابن بسام أن أبا العلاء الصاعد بن الحسن البغدادي دخل يوما على المنصور فوجد عودا بين يديه، ثم قال له المنصور: "قد تواتر الخبر وتحدث عنك البشر أنك فرد في علم الموسيقى، وقد أردت غير مرة الانبساط معك سرا في ذلك " فشُق الأمر على صاعد هنالك، ولم يجد من محيد عن أخذ العود، فتناوله وحبس أوتاره وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر:

أبى القلب إلا حبها عامرية	لها كنية عمرو وليس لها عمــرو
تكاد يدي تندى إذا لمستُهـا	وينبت في أطرافها الورق الخضر[2].

أما المظفر عبد الملك بن الحاجب المنصور (ت 399هـ /1008م) فقد فاق أباه في إباحة الحريات، والتخفيف عن الناس، فراقت أيامه وأحبه الناس سرا وعلانية، وانصب الإقبال والتأييد عليه انصبابا لم يُسمع بمثله، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس، فباحوا بالنعمة، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيّان حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته، وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال في كنف ملك مقتبل السعد، ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها، ثم أغرق عبد الملك النزع في دولته، وانهمك في طلب الآلات الملوكية حتى جُلب إليه من ذلك كل علق خطير و تأنق في مراكبه هو وأصحابه[3].

وكان ابتكار الموشحات[4] والأزجال[5] من العوامل التي ساعدت على النهوض بفن الغناء والموسيقى في قرطبة أيام الخلافة[6].

ونستدل على ازدهار الغناء والموسيقى والرقص في عصر الخلافة من النقوش المحفورة في العلب والصناديق العاجية التي تنتجها دار الصناعة بقرطبة، وهي نقوش تمثل

---

[1] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص280-281.

[2] ابن بسام: المصدر السابق ،ق04،ج1 ،ص30-31.

[3] نفسه، ص78-79.

[4] الموشحات: أشعار أكثر موضوعاتها تصلح للغناء، تدور حول الغزل والخمر، ووصف الطبيعة، وكلها موضوعات ترتبط ارتباطا وثيقا بمجالس الطرب، أنظر: عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص98.

[5] الزجل هو شعر شعبي، يختلف عن الموشح في أنه يكتب باللغة العربية العامية، وقد ظهر هذا الفن متأخرا عن الموشحات، وشهد تطورا كبيرا في عصر الطوائف واستمر حتى سقوط غرناطة سنة 1492، انظر: لخميسي بولعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية بالأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة باتنة ، 2006م، ص201.

[6] نفسه، ص98.

في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب، منها نقش محفور على علبة من العاج أسطوانية الشكل من عصر الحكم المستنصر تحمل تاريخ سنة 375هـ، محفوظة اليوم بمتحف اللّوفر يمثل منظرا لمجلس من تلك المجالس، نشاهد فيه صورة رجلين جالسين، يحمل أحدهما قنينة الشراب، ويعزف الآخر على آلة مستديرة يغلب على الظن أنها البريط أو الرباب، ويقف بينهما رجل يعزف على عود يحمله بين يده[1]، ويتجلى من صور في نقوش صندوق من العاج يحمل تاريخ سنة 395هـ مظاهر لها علاقة بالغناء والموسيقى[2].

مما تقدم نجد أن صناعة الغناء راجت زمن الخلافة الأموية ومن بعدها الدولة العامرية رواجا كبيرا، إذ أن المتمعن في سياق الروايات التاريخية السالفة الذكر يرى أنها اشتملت على ذكر كل ماله علاقة بفني الموسيقى والغناء وما ينجر عنهما من رقص وطرب.

ج- الطعام والشراب:

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التي عرفوها في بلادهم، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التي كانت موجودة في هذه البلاد شيئا فشيئا باستقرارهم واختلاطهم بالسكان، فأخذت أطعمتهم تتغير، وتتعدد ألوانها[3].

وبمُضي الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان أخذت أنواع الأطعمة الإسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين، وبدأت ألوان الترف والبذخ تتسرب إلى أطعمة الأمراء والخلفاء والخاصة، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم الجوارشنات[4] كما أن البعض يستشير الأطباء فيما يأكل ويشرب[5].

وكان استخدام اللحوم من خصائص الطبخ في الأندلس، كلحوم البقر[6]، والسمك والطيور المختلفة[7].

وقد عرف الأندلسيون مختلف أنواع الأطعمة خصوصا الفاخرة منها، كالثريد الذي يتكون من أنواع عدة من اللحم والدجاج، كانت تقدم بشكل مُنسق ومنمّق في طبق كبير، بحيث تُشكل نقيضا للأطباق العادية، وهو ما حدا بالناس لوصفها " بأحد أطباق الملوك والوزراء "[8].

ويبدو أن الأندلسيين قد أولعوا بأكل اللحوم، ومما دل على ذلك ما ذكره السّقطي أن بعض الطُهاة يستغلون لهف الأندلسيين وتزايد طلبهم للحوم، فاستخدموا لحوم فاسدة

---

[1] عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ج2، ص96.
[2] نفسه، ص96-97.
[3] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص288.
[4] الجوار شن: هو نوع من الأدوية الهاضمة للطعام ، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج51، ص4673.
[5] طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الأندلسية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م، ص102.
[6] دايفد وينز: "فنون الطبخ في الأندلس"، الحضارة الإسلامية في الأندلس، ج2، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ص1030.
[7] المقري: المصدر السابق، ج1، ص567.
[8] دايفد وينز: المرجع السابق، ص1021.

ومحرمة، كاستخدام لحم فرس ميت، أو ذبح الكلاب، ولم يستطع الأندلسيين أن يميزوا بين أنواع اللحوم، خاصة عندما تكون مطهية[1].

ويؤكد وينز على ولع الأندلسيين باللحوم حيث يذكر أنهم كانوا يُدخلون أنواع اللحوم في مختلف طبخاتهم ، كلحم الضأن والحمام والدجاج والطيور المنوعة بشكل كبير[2].

والملاحظ أن أنواع الطعام الدسمة التي تناولها الأندلسيون غذاء لهم، كانت سببا لحدوث الإمساك في المعدة، فيلجؤون إلى الطبيب لعلاج ذلك وهذا ما أشار إليه ابن أبي أصيبعة أن: " أهل الأندلس إذا أراد أحدهم إسهال و تليين طبيعته أخذ من السقمونيا[3] وزن ثلاث دراهم "[4].

ومع أن المصادر الأندلسية شحيحة في هذا المجال، إلا أن القدر اليسير من الإشارات الواردة فيها تؤكد لنا ما كان يعيشه أهل الأندلس من الترف والبذخ في طعامهم،لاسيما على مستوى الطبقة الحاكمة والمالكة للثروة، ففي عصر الخلافة الأموية يذكر المقري: " أن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتىً، دُخالتهم من اللحم كل يوم بخلاف الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل، وأن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزه كل يوم، وأنه كان يُنقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم"[5]، ولكن بالرغم من ذلك فإن هذا العهد عرف بعض أهل البدع الذين تجاوزوا أكل اللحوم الحلال ليأكلوا من اللحوم المحرمة، كأبي الخير[6]، الذي ثبت عنه أنه أكل لحم الخنزير[7].

كما ذُكر أيضا أن المنصور بن أبي عامر كان له كل يوم اثنا عشر ألف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيتان، وهذا لطعامه ومن في قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجواري[8].

وقد شاعت تقاليد زرياب ومبتكراته في مجال الطعام والشراب وآداب المائدة[1]، لدى أوساط الطبقة العليا وعلى رأسها الأمراء والخلفاء[2].

---

[1] السقطي: في آداب الحسبة، ترجمة: ليفي بروفينسال، المعهد المتوسط الوطني المغربي، باريس، 1931م، ص36.
[2] دايفد وينز: المرجع السابق، ص1030.
[3] السقمونيا: نبات يستخرج منه دواء مُسهل للبطن ومزيل لدوده، أنظر: شعبان عبد العاطي عطية آخران: المرجع السابق، ص437.
[4] ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص190.
[5] المقري: المصدر السابق، ج1، ص567.
[6] يسميه المقري بأبي الشر، وقد عاش في عهد الخليفة الأموي الحكم (ت 366هـ)، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج5، ص129 .
[7] أبي الأصبغ عيسى بن سهل: ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس، تحقيق: محمد عبد الوهاب خلاف، ط1، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، 1981م ،ص41.
[8] المقري: المصدر السابق، ج1، ص574-575.

أما عن الشراب فقد كان هناك من يشرب الخمر، وقد كانت زراعة الكروم منتشرة في الأندلس قبل الفتح وبعده وكان يزرعها كثير من الأسبان لصناعة الخمور[3].

ولذلك فقد عُرف كثير من الأندلسيين بولعهم الشديد بشرب الخمر، حتى شاع شربه بين كثير من طبقات الخاصة والعامة، وعمّت مجالس الشراب كثيرا من أنحاء الأندلس، فكان وصف الخمر من الموضوعات التي اشتغل بها الكثير من شعراء وزجالي الأندلس[4].

وقد عدّ الباحث بوتشيش شرب الخمر من مظاهر حياة الترف والبذخ[5]، وكان لبعض الحكام دورا واضحا في محاولة منع انتشار الخمور، فالحكم المستنصر(ت 366هـ) منع الناس من شرب الخمر في جميع أنحاء الأندلس وأمر بإراقتها وتشدد في ذلك[6]، حيث عزم على استئصال أشجارها حتى يقضي على صناعة الخمر، وشاور في ذلك فقيل له: إنهم يعملونها من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك[7].

ولقد نظّم الشاعر يوسف بن هارون[8](ت 403هـ) قصيدة أبدى حزنه من خلالها على شاربي الخمر، لما ألّم بهم من جراء قرار الحكم المستنصر القاضي بمنعها وإراقة ما هو موجود منها، وقد قال في قصيدته:

بخطب الشاربين يضيق صدري ... وترمضني[9] بليتهم لعـــــمري
وهل هم غير عشـــاق أصيبوا ... بفقد حبائب ومـــــنوا بهجـــر
أعشاق المدامـــــة إن جزعــتم ... لفرقته فليـــس مكـــان صبر
سعى طلابكم حتى أريقـــــــت ... دماء فوق وجه الأرض تجري
تضوّع[10] عرفها شرقا وغربـــا ... وطبـــق أفق قرطـــبة بعطر[11].

يفهم من هذه الأبيات أن الشاعر يوسف بن هارون قد أرادها دفاعا عن شاربي الخمر على عهد المستنصر، بل يتعداه إلى وصفها وكذا التلذذ برائحتها.

---

[1] استحدث زرياب أطعمة جديدة على عدة ألوان، كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة وتقديم الطعام عليها، انظر: المقري: المصدر السابق، ج3، ص127-128.
[2] حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص347.
[3] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص290.
[4] عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص333.
[5] إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق ،ص22.
[6] النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ج23، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م، ص234.
[7] الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج1، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م، ص40.
[8] هو الشاعر يوسف بن هارون الرّمادي، من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر، وهو شاعر مشهور مُقدم على الشعراء(ت 403هـ)، أنظر: ابن بشكوال: الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج3،ط1، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، 1989م، ص969.
[9] رمض الرجل: احترقت قدماه في شدة الحر، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج17، ص1729.
[10] الضوع: تضوع الريح الطيبة أي نفحتها وضاعت الرائحة ضوعا وتضوعت كلاهما نفحت، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج28، ص2620.
[11] الحميدي: المصدر السابق، ص14.

وعلى الرغم من أن بعض حكام الأندلس عملوا على محاربة الخمر- زمن الخلافة الأموية - إلا أننا نجد البعض الآخر قد سعى لطلبها في مجالسه - زمن الدولة العامرية - فعبد الملك بن المنصور بن أبي عامر[1](ت399هـ / 912م) كان له مجلسا للشراب، وكان وزيره عيسى بن سعيد لا يحب الشراب، فما كان من عبد الملك بن منصور إلا أن " استعفاه من ذلك لضعف شربه"[2].

وهذا أخوه عبد الرحمان شانجول(ت 399هـ)[3] " كان يقضي معظم وقته في الشراب واللهو، يخرج من منية إلى منية، ومن منتزه إلى منتزه، مع الخياليين والمغنين والمضحكين، مجاهرا بالفتك، وشرب الخمر"[4].

يستنتج مما سبق أن عهدي الخلافة والدولة العامرية(300-399هـ) قد عرفا لونا آخر يضاف إلى ما سبق من ألوان الترف، وهو الترف والإسراف في الطعام والشراب.

د- اللباس:

تنوعت مادة صناعة الملابس في الأندلس حيث اشتملت على الكتان والقطن والديباج[5]، والحرير الموشى بالخيوط الذهبية[6]، كما كانت هناك أنواع أخرى من الملابس تميزت بالفخامة[7] كالوشي اليوسفي، والوشي الهشامي، وهي ملابس الخلفاء والأمراء وبعض القضاة والعلماء[8].

وكان لتقدم صناعة النسيج في الأندلس أثر كبير في اهتمام أهلها بالزي واللباس، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات المتنوعة، خاصة مدينة المرية التي كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات الفاخرة من الديباج والسقلاطون[9] والأصبهاني والجرجاني والعتّابي[10] وغير ذلك[1].

---

[1] هو أبو مروان المظفر بالله بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر المعا فري، ولي الحجابة بعد موت أبيه يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان المعظم سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة، ولقب بالمظفر وسيف الدولة، كان مع غلبت النبيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقبا لربه، باكيا على ذنبه محبا في الصالحين يستهدي أدعيتهم، ويجزل الثواب لمن دله عليهم، وكان يظهر العدل ويحمي الشرع، ويرفق بالرعية، له في بلاد الروم آثار عظيمة غزا سبع غزوات في مدته، وفي السابعة توفي، قيل أنه مات مسموما وقيل مات من علة الذبحة ،وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط ليلة الجمعة لأربع خلون لصفر من سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فكانت مدة حجابته وملكه مستبدا ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام من وفاة أبيه إلى وفاته، أنظر: ابن عذارى: المصدر السابق،ج3، ص3-4.

[2] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، ج1، ص125.

[3] هو عبد الرحمان بن أبي عامر الملقب بشانجول اسم غلب عليه من قبل أمه عبدَة بنت شانجة النصراني الملك، كان أشبه الناس بجده شانجة، تولى الحكم بعد وفاة أخيه المظفر سنة(399هـ)، أنظر: ابن عذارى، المصدر السابق،ج3، ص38.

[4] نفسه، ص39.

[5] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص296.

[6] المقري: المصدر السابق، ج1، ص201.

[7] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص296.

[8] نفسه، ص296.

[9] سقلاطون : بلد من بلاد الروم تنسب إليها هذه الثياب: أنظر: محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية، د.ط، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1996م ، ص174.

[10] العتابي: نوع من النسيج ينسج من خيوط القطن والحرير وتكون رقيقة الملمس بديعة الصنعة ؛ أنظر: نفسه، ص175.

كما احتلت قرطبة مركز الصدارة في صناعة الحرير والديباج والموشى في الأندلس، وكانت تعتمد في صناعته على مدينة جيان[2] التي توفرت في قراها كل مقومات هذه الصناعة، إذ كان بها ما يربو عن ثلاثة آلاف قرية كلها يربى بها دود الحرير[3]، وقد كانت الأزياء السالفة الذكر تبُهر أهل المشرق الإسلامي، فكانوا إذا رأوها تعجبوا من حسن صنعتها[4].

وقد تحدث ابن الخطيب عن التنوع في ارتداء الملابس بين أهل غرناطة واختلاف أنواعها حسب المقدرة المالية للشخص، وعن اختلاف ألوانها المشبه بالأزهار بقوله:" ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم، الملف[5] المصبوغ شتاءا، وتتفاضل أجناس البز[6]بتفاضل الجدة[7]،والمقدار، والكتان والحرير، والقطن والمرعزي[8]، والأردية[9] الإفريقية، والمقاطع[10] التونسية، والمآزر[11] المشفوعة صيفا، فتبصرهم في المساجد أيام الجمعة، كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة"[12].

أما المقري فقد تحدث عن لباس غرناطة وبسطة[13] مشيرا إلى ما عُرف عن أهلها من لباس الثياب ذي الألوان الفاخرة والعجيبة بقوله: " ويصنع في غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يُعرف بالملبد المُختم ذي الألوان العجيبة "[14].

ووصفا ابن الخطيب و المقري للباس أهل الأندلس رغم اختلافها في الزمن يمكن أن نعممهما على باقي أهل الأندلس إلى حد ما لأن العادات والتقاليد لا تتغير بين يوم وليلة.

---

[1] الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص184.

[2] مملكة جليلة معروفة بالمحارث والأخشاب، حسنة كثيرة العسل واللحوم والعيون الجارية تقع في سفح جبل عال، انظر: الحميري : المصدر السابق، ص70-71.

[3] محمد أحمد أبو الفضل: المرجع السابق، ص172.

[4] المقري: المصدر السابق، ج1، ص201.

[5] الملف: لحاف يلتف به، أنظر: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، ج24، د.ط، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1987م، ص372.

[6] البز: ضرب من الثياب والبزة: هي الشارة، أنظر:الفراهيدي: العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي، ج7، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر، ص353.

[7] جدة: أجدان الرجل: استغنى بعد فقر، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق،ج6، 572.

[8] المرعزي: اللين من الصوف، أنظر: فؤاد أخرام البستاني: منجد الطلاب، ط43، دار المشرق، بيروت،1995م، ص724.

[9] الأردية: جمع رداء، وهو ما يقع على المنكبين والكتفين ومجمع العنق، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج17،ص1631.

[10] المقاطع: المُقطّع من الثياب كل ما يُفصل من قمش وجباب وسراويلات وغيرها، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج22، ص42.

[11] الإزار: بالكسر هو معروف بالملحفة، وفسّره البعض بما يستر أسفل البدن، والرداء ما يستر به أعلاه، وكلاهما غير مخيط ، انظر: نفسه، ج10، ص43.

[12] ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج1، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م، ص134-135.

[13] بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي متوسطة المقدار، حسنت الوضع، عامرة، آهلة، حصينة ذات أسوار بها تجارات ومختلف الصناعات، أنظر: الحميري: المصدر السابق، ص44-45.

[14] المقري: المصدر السابق، ج1، ص201.

وفيما يخص ملابس النساء فقد كان طابعها الأناقة والنفاسة والترف، وخاصة نساء الطبقة الراقية، حيث كُن يتفنن في لبس المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب، ويبالغن في زينتهن من التحلي بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة في ذلك الوقت[1] .

وحديث المقري عن زي أهل الأندلس بعامة فإنه جدير بالذكر في هذا المقام: " وكثيرا ما يتزين سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم "[2]، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن سلاطين الأندلس وجنودها كانوا يتشبهون بالنصارى في لباسهم، لما فيها من أبهة وفخامة وتعدد ألوان.

هذا وقد كان لقدوم زرياب(ت 230هـ -845م) أثر كبير في تطور الزي في الأندلس، حيث أدخل الكثير من التقاليد في هذه الناحية ومنه أنه جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس مناسبة [3]، وقد أشار الباحث حسن إبراهيم إلى ذلك بقوله: "فعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونيه حتى نهاية سبتمبر، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة، والقمصان ذات الألوان الزاهية، وأن الشتاء هو فصل الفراء والملابس الثقيلة "[4].

وفي النص إشارة واضحة إلى انتشار لبس الحرير بين أهالي الأندلس، وهو من مظاهر الترف، أما القمصان ذات الألوان الزاهية فهذا دليل على كثرة أنواعها وتعدد ألونها.

ولعل الترف في اللباس الذي أوجده زرياب في الأندلس بما يحويه من تأنق وفن قد أغرى الناس بالتشبه به وأصبح مضرب المثل في الأندلس[5].

وهناك إشارات ترويها المصادر التاريخية تنهض دليلا على وجود الترف في اللباس زمن الخلافة والدولة العامرية على وجه التحديد، فهذا أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير عبد الرحمان الناصر عندما كان طفلا صغيرا سلبه أبوه ملابسه الحسنة، واستبدلها بثياب من الكتان فقال في ذلك: " إن أبي عبْدَ مِنَنِكم لما بعُد أمله، وبان خُشوعه، وسالت دموعه، نكب عن طريق أهل الدنيا ورمى مرمى من مرامي أهل الأخرى فكسر همتي وحلق لمتي، وسلبني بزي، وعراني من خزي، فكانت أفدح نازلة نزلت بصوبتي، وأقلق حادثة سلبت رونق بهجتي، وأنا ذلك ابن ثمان قد هجنت[6] في مدارع[7] الكتان "[8]، ولما لقيه الوزير ابن مسلمة[1] سأله عن حاله غير أن جوابه كان البكاء، فلما علم بذلك المظفر بن

---

[1] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص298.
[2] المقري: المصدر السابق، ج1، ص222-223.
[3] حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، د.ط، دار الرشاد، د.م، 2004م، ص333.
[4] حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص350.
[5] محمد حسين قجة: محطات أندلسية، ط1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م، ص84-85.
[6] هجين: الذي ولدته أمة، أنظر: الرازي: المصدر السابق، ص546.
[7] مدارع: المدرع هو ضرب من الثياب التي تُلبس، وقيل جبة مشقوقة المقدم، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج15، ص1361.
[8] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، ج1، ص194.

المنصور(ت399هـ)- وكان أبوه غائبا - استقدم ابن عبد الملك كما يروي هو نفسه قائلا: "أمر بي فألبست ثياب الحرير"[2]، يستنتج من خلال هذين النصين الأخيرين أن الطبقة الخاصة في الأندلس خلال هذه الفترة- أي القرن الرابع الهجري- كانت تتزي بأحسن اللباس مثل لباس البز والخز وكذا الحرير.

وقد وصف عبد الملك بن جهور[3] الملابس الملونة في الأندلس قائلا:

أقبلتِ في ثوب عليك بنفسجي كالسوسن الأرج النقي الأبهج
كالروض حسنا قد تشرب ماءَه فبدا به من حل كل حسن مُبهج[4].

ووصل الترف في الملبس إلى من كان يعمل زامرا في البوق ،فقد كان أحدهم يُدعى النّكوري يزمر في أحد الأعراس في عهد عبد الرحمان الناصر وهو يلبس على رأسه قلنسوة وشي وثياب من الخز[5].

وتنوعت ملابس الترف على عهد الخلافة الأموية بالأندلس بين ما يرتديه الأندلسيون على أجسامهم، أو ما يعتمون به على رؤوسهم وهذا ما يشير إليه ابن الفرضي عندما يتحدث عن السليماني عبد الملك محمد بن عبد الملك[6] بقوله: "قدم إلى الأندلس نحو الستين والثلاث مائة، فتوسع له المستنصر بالله رحمه الله وأجرى له العطاء، وكان حليما أديبا، لبيسا للثياب، يلبس الخز ويعتم به"[7]

ووصف ابن عذارى ترف مبارك والمظفر موليا عبد الملك بن أبي عامر(ت399هـ)في اللباس أثناء موكبهما للجمعة "كان للنعماء الوارث لحجابه الخلافة،في فخر لباسهما ووفود عدد أصحابهما، وحسن خدمتهم لهما، وأنّ كلا منهما كان يضاهي الوشي على الخ، ويستشعر[8] الدبيقي[9]، ويتقلس الموشي " [10].

---

[1] هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة الوزير، أديب عالم، شاعر من بيت أدب ورياسة، سكن أشبيلية، وله كتاب سماه: كتاب الارتياح بوصف الراح، أنظر: الحميدي: المصدر السابق، ص59.

[2] ابن بسام : المصدر السابق، ق01، مج1، ص195.

[3] هو عبد الملك بن جهور أبو مروان وزير جليل، أديب، شاعر كاتب، في أيام عبد الرحمان الناصر، أنظر: الحميدي: المصدر السابق، ص282.

[4] ابن الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الشروق، د.م، 1981م، ص56.

[5] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص279.

[6] يكنى أبو مروان، وهو مقدسي، أنظر: ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج1، ط2، مطبعة المدني، القاهرة، 1982م، ص318.

[7] نفسه، ص318.

[8] استشعر القوم: إذا تداعوا بالشعار في الحرب، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج12، ص198-199؛ والظاهر أن المقصود من النص هو أنهما كانا يضعان شعارات على لباسهما.

[9] الدبيقي: ثياب معروفة بمصر تنسب إلى دبيق، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج15، ص1324.

[10] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص161-162.

وكانت الثياب في بعض الأحيان مدعاة للفخر والتطاول، ويشير إلى هذا ما كتبه أبو بكر محمد الزبيدي(ت380هـ/990م)[1] إلى أبي مسلم بن فهد من أبيات شعر تنكر عليه افتخاره بثيابه ومركبه ، فيقول :

أبا مسـلم إن الفتــى بجنانـه ومقوله، لا بالمراكب واللُّبــــس

وليست ثياب المرء تُغني قُلامة[2] إذا كان مقصورا على قصر النفس[3].

من خلال النصوص التاريخية السالفة الذكر يتضح لنا مدى الترف والبذخ في اللباس الذي عرفته بلاد الأندلس زمن الخلافة والدولة العامرية.

هـ - الأعراس و الاحتفالات :

يمكن لقارئ روايات المؤرخين عن قرطبة وأهلها مثلا كواحدة من مدن الأندلس أن يستشف أن مظاهر الترف والبهجة كانت هي السمة الغالبة عليها، ومما لا شك فيه بأن الترف الذي كان يحصل عند استقبال الأمراء والخلفاء للسفراء، كان يجري مثله و أكثر في الأعياد و الحفلات[4].

وقد تعددت سفارات الدول المسيحية إلى قرطبة خاصة في عهدي الناصر والحكم (300-366هـ)، ولعل أكثر السفارات شهرة في عهد الناصر هي سفارة إمبراطور بيزنطة (قسطنطين السابع) التي استقبلها الخليفة في بهو المجلس الزاهر بقصر الخلافة بقرطبة يوم السبت 11ربيع الأول 338هـ/ 08سبتمبر949م[5]، وقد نقل المقري عن ابن حيان وصف حفل استقبال هذه السفارة و ما رافقها من إنفاق باذخ، فروى أن الخليفة قعد للسفراء " قعودا حسنا، وقعد يمينه ولي العهد من بنيه، الحكم، وأربعة غيره من أولاده، وقعد عن يساره ثلاثة آخرون من أولاده، و حضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء و الموالي و الوكلاء

وغيرهم، وقد بُسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار و حناياها بظل الديباج، ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك و فخامة السلطان ..."[6] ، وقد توالت عدة سفارات أخرى في عهد الناصر.

[1] هو أبو بكر محمد الزبيدي، صاحب كتاب مختصر العين وغيره، وكان مؤدب المؤيد هشام، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج3 ،ص74.

[2] قلامة: قلّم الظفر والحافر والعود، يقلمه قلما، وقلمه قطعه بالقلمين، واسم ما قطع منه القلامة، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج39، ص3729.

[3] المقري: المصدر السابق، ج4، ص7.

[4] أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983م، ص261.

[5] نفسه، ص262.

[6] المقري: المصدر السابق، ج1، ص366-367.

وفي عهد ابنه الحكم المستنصر، كانت لحفلات استقبال السفراء أياما مشهودة في قرطبة يطير خبرها بالأندلس جميعا و يتداول الناس الحديث عنها زمنا طويلا[1].

وكانت احتفالات الحكام بالزواج غاية الترف، فقد كان عرس ابن أبي عامر (ت392هـ/1002م)أعظم عرس قام في بلاد الأندلس، حين تزوج من أسماء بنت غالب صاحب مدينة سالم [2]، وكان ينفق في مثل هذه الأعراس أموالا طائلة، وخصوصا من قبل والد العروس " الزوجة " حيث أن والدها هو من كان يتكفل نفقات العرس، ويتجلى لنا ذلك ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم [3]، حيث قال: " دُفعت إلى ما لا أطيق من نفقة عرس ابنة لي، و لم يبق معي سوى لجام محلى، و لما ضاقت بي الأسباب قصدته(ابن أبي عامر) بدار الضرب حين كان صاحبها، و الدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة، فأعلمته ما جئت له، فابتهج بما سمعه مني وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره، فملأ حجري وكنت غير مصدق بما جرى لعِظمه، وعملت العرس، وفضلت لي فضلة كثيرة"[4]، ومن بين الاحتفالات المترفة التي أقامها الحكام كذلك حفلات الختان، ولعل أعظم هذه الاحتفالات هو الاحتفال الذي قام به المنصور بمناسبة إعذار ولده عبد الرحمن شانجول عام (380هـ / 990م) مع خمسمائة صبي حيث يروى أنه بذل في هذه المناسبة أموالا باهضة، إذ " بلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار خمسمائة ألف دينار "[5].

وقد صور لنا الشاعر الجزيري هذا الصنيع الذي أعده المنصور في ختان أحد أبنائه، وقد أشار في إعجاب إلى سخاء المنصور الذي لا يماثله إلا السحاب الهاطل بالمطر، لينعش الآمال بعد القحط [6].

أما الغمـــام فشـــاهد لـــك أنه	لا شك صنوك أو أخوك الأوحد
واق الصنيع فحين تم تمـــامه	في الصـــحو أنشـــأ ودقه بتدفق
وأضنه يحكيك جودا إذ رأى	في اليوم بحرك زاخـرا يتفهــق[7].

---

[1] أحمد فكري: المرجع السابق، ص262-263.
[2] المقري: المصدر السابق، ج1، ص400.
[3] هو أبو عبد الله (ت365هـ / 995م)، من أهل بجانة، كان بصيرا بالنحو حافظا للفقه، حسن الخط جيد الضبط وكان حليما أديبا، أنظر: ابن الفرضي: المصدر السابق، ج2، ص101.
[4] المقري: المصدر السابق، ج3، ص88.
[5] الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: موسى نعيم العرقسوسي،ج17، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت،1982 م، ص128.
[6] حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ط1 ،دار الجيل، بيروت، 1992م، ص162.
[7] نفسه: ص162.

وعرفت الأندلس في احتفالات الزواج خلال القرن الرابع الهجري إقامة الولائم، فقد قام ابن القطاع[1] بتزويج ابنه الذي يكنى بأبي عامر من أخت عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الصغرى عام (396هـ /1006م)، و احتفل لذلك بوليمة عظيمة[2].

2- مظاهر الترف العمرانية :

لقد نشطت الحركة العمرانية في عهد الخلافة الأموية والدولة العامرية نشاطا كبيرا حتى فاقت قرطبة باقي العواصم العربية الأخرى، بغداد، القاهرة ودمشق وغيرها، وأصبحت تستقطب الآلاف من البشر وتزدحم بآلاف المنازل و القصور[3].

وكان التفوق على المستوى العمراني غالبا يظهر في مباني رجال الحكم، والأغنياء، وأصحاب رؤوس الأموال، ولذلك نرى أن الملوك من أشد الناس عناية بالمسكن، إذ كانوا يطلقون على قصورهم أسماء فخمة، دالة على ترف المعيشة فيها، وكانت تُلحق بهذه القصور مجالس للملك وسمرائه[4].

ولابن خلدون نظرية في هذا المجال، حيث يرى بأنه: " متى زاد العمران زاد الترف "[5].

وقد أبهرت مظاهر البناء المترف التي أشرف عليها المهندسون المسلمون في الأندلس كل من رآها، وامتد تأثيرها شرقا وغربا، وأصبحت منهلا خصبا اقتبس منه فنانو أوربا أعظم أعمالهم الفنية[6].

ولعل القرن الرابع الهجري، هو القرن الأبرز في الأندلس الإسلامية من حيث الترف في العمران، وهذا ما نستشفه من خلال حديثنا عن العمارة المدنية والدينية في الأندلس خلال هذا القرن.

---

[1] هو عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع، وزير المنصور بن أبي عامر، وقد بلغ غاية الغنى في عهد عبد الملك بن المنصور، فصاهر عبد الملك، حيث زوج ابنه من أخت عبد الملك الصغرى، وبلغ به الغنى أن أعجز الناس إحصاء دوره وضياعه، حتى كثر أعداءه، وكانوا يستغلون عدم حضوره مجالس الشراب عند عبد الملك فيوشون به، فوجد عبد الملك في نفسه من عيسى، إلى أن قتله في أحد مجالس شربه عام (397هـ/1007م) انظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج1، ص123-127.

[2] نفسه، ق01، مج1، ص124.

[3] علي حسين الشطشاط: نهاية الوجود العربي في الأندلس، د.ط ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م، ص104.

[4] نادر فرج زيارة: الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي(92هـ -711م) / (668هـ -1269م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م ،ص128.

[5] ابن خلدون: المصدر السابق، ص365.

[6] محمد الكحلاوي: " عرفاء البناء في المغرب و الأندلس وأهم أعمالهم المعمارية "، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، ط1، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996م، ص199.

أ- العمارة المدنية :

- الزهراء :

لقد وصلت قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر إلى الذروة، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أي حاضرة أخرى في الأندلس من قبل[1].

وهذا ما شهد به الرحالة ابن حوقل- رغم ما عُرف عنه من عداء للأمويين- فقال: "هي أعظم مدينة بالأندلس وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل وسعة رقعة، وفسحة أسواق، ونظافة محال، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق "[2].

وقد كان الناصر شغوفا بالبناء والعمران، وساعد في ذلك ما وصلت إليه جباية الأندلس وخراجها في عهده من كثرة واتساع، فجعل ثلثها للبناء والعمران[3].

وفي ذلك يقول ابن عذارى عنه أنه: " أسس الأسوس وغرس الغروس، واتخذ المصانع والقصور ولم يبق له في القصر الذي من مصانع أجداده، ومعالم ألويته بنية، إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد أوبتزييد"[4].

ويقول ابن خلدون(ت808هـ): "ولما استفحل الملك الناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني "[5]، ومن بين المباني نذكر مدينة الزهراء[6]، حيث ذكر المؤرخون سبب بنائها: أن الناصر قد ماتت له جارية تركت مالا كثيرا، فأمر أن يفتدي بذلك المال أسرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجد لديهم أسرى، فطلبت منه جارية له تدعى الزهراء أن يبني لها بهذا المال مدينة ويسميها باسمها، فاستجاب لذلك وأخذ في بناء المدينة سنة (325هـ / 946م) تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك[7].

ويبدو أن الدافع لبنائها في رأي الباحث أحمد مختار العبادي هو رغبة الخليفة عبد الرحمان الناصر في إقامة مدينة ملكية خاصة أو دار للخلافة السنية الجديدة التي أقامها في الأندلس[8]، أما قصة الجارية فيبدو أنها من نسج خيال بعض المؤرخين العرب، وفيما يخص

---

[1] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص237.

[2] ابن حوقل: صورة الأرض، ص107.

[3] يذكر ابن عذارى: أن جباية الأندلس بلغت في عهد الناصر خمس آلاف ألف، وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن المستخلص والأسواق سبعمائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار، أنظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231-232.

[4] المصدر نفسه، ص223-224.

[5] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، د.ط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2000م، ص184.

[6] يصفها الإدريسي بأنها مدينة عظيمة رحبة البنية، مدينة فوق مدينة، حيث أنها تتكون من ثلاث أجزاء، فالجزء العلوي منها عبارة عن قصور يقصر الوصف عن صفاتها ، أما الجزء الأوسط فهو بساتين وروضات ، بينما الجزء الثالث يشتمل على الجامع وديار أهل الخدمة والفتيان الصقالبة والجند المربين، أنظر: الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1989م ،ص580.

[7] المقري: المصدر السابق، ج1، ص523.

[8] أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، د.ط ، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص204.

اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التي أسسها الخليفة في هذه المدينة، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار على جبل قرطبة التي تقع المدينة على سفحه، وخاصة أشجار التين واللوز[1].

وأغلب الظن أن الناصر سمى المدينة "الزهراء" قاصدا مدلول اللفظ ومعناه، ولعله أرضى في الوقت نفسه جاريته المحبوبة بأن اختار اسمها لمدينته[2].

وبدأ الناصر في بناء هذه المدينة أول المحرم سنة325هـ[3]، واستمر بناءها نحوا من أربعين سنة، خمسا وعشرين سنة إلى وفاة الناصر، ثم طيلة عهد ابنه الحكم أي إلى سنة(366هـ / 976م)[4].

وجعل الناصر ابنه الحكم مشرفا على تنفيذ مشروعه[5]، وكان المهندس المقيم، أو العريف، هو مسلمة ابن عبد الله، وكان يعاونه "عبد الله ابن يونس عريف البنائين، وحسن بن محمد، وعلي بن جعفر الإسكندراني[6] "[7].

وكان يشتغل في حقل البناء "عشرة آلاف رجل من الخدام والفعلة ، كان منهم في كل يوم من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة ، وكانت تستخدم فيها في كل يوم كذلك ألف وخمسمائة دابة"[8]، "وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنه قدّر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمس وعشرين عام التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها، لأنه توفي سنة خمسين فحصّل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال"[9].

ورغم أن هذه الأرقام غير دقيقة، وربما مبالغ فيها إلا أنها تعكس مدى الإنفاق الذي حظيت به مدينة الزهراء.

يذكر ابن عذارى: "أنه كان يُصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة، سوى التبليط في الأساس، وأن عدد السواري التي جُلبت لها بلغ أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر سارية، جُلب منها ألف وثلاثة عشر سارية من افريقية، ومائة وأربعون سارية هدية من إمبراطور بيزنطة، والباقي من مقاطع الأندلس"[10].

[1] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص340-341.
[2] أحمد فكري: المرجع السابق، ص201.
[3] المقري: المصدر السابق، ج1، ص526.
[4] أحمد فكري: المرجع السابق، ص202.
[5] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231.
[6] عثر في أطلال "دار الملك" بمدينة الزهراء على نقوش كتابية حفرت عليها بعض أسماء العمال وهم: سيف وسعيد الأحمر، وسعد ومحمد بن سعد ورشيق وغالب وسعيد بن محمود وفتح وأفلح ودُمير ومُظفر والنقاشون بدر ونصر وعُبيد، أنظر: احمد فكري: المرجع السابق، ص203.
[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231.
[8] المقري: المصدر السابق،ج1، ص526.
[9] نفسه ،ص568.
[10] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231.

وجلب إليها الناصر الرخام الأبيض من المرية، والمجزع[1] من رية، والوردي والأخضر من افريقية[2]، والحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل، وقد أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثني عشر تمثالا[3].

واجتهد الناصر في تنميق مدينته على أفضل وأبهى الطرز المعمارية، "حيث أمعن في بنائها، وأغرب في حسنها، وجلب إليها الرخام الملون والمرمر الصافي، وكان يباشر الصُناع بنفسه، حتى تخلف عن الجمعة ثلاث مرات متواليات[4] " [5].

وقد عمل الناصر مجلسا خاصا به يشرف على البساتين، صفّح عُمده بالذهب، ورصّعه بالياقوت والزُّمُرّد، واللّؤلؤ، وفرشه بمنقوش الرخام، وضع أمامه بحيرة مستديرة[6]، ملأها بالزئبق فكان النور ينعكس من خلالها على المجلس[7].

ومن صور الترف التي وصل إليها الناصر إضافة لما سبق بناءه لصرح ممرّد بقصر الزهراء، له قراميد مُغشّاة بالذهب والفضة أنفق عليها مالا جسيما، تُشتت الأبصار بأشعة أنوارها، وقد شهد له بعض قرابته من الوزراء وأهل الخدمة بعدم وجود نظير له بقولهم:" إنك لواحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره "[8].

فمن خلال النص يتبين لنا مقدار أبهة وفخامة هذا الصرح، إذ أن قرابة الناصر من الوزراء والخدام عندما رأوا الصرح هالهم المشهد ورونقه، وأقرّوا بعدم رؤية صرح مماثل له من قبل.

ولعل من بواعث الناصر على بناء مدينة الزهراء هو رغبته في تمييزها عن المظاهر العامة لعاصمته المكتظة فهو يريد بذلك إظهار فخامة المُلك من وراء هذا البناء[9]، مما يؤكد بأن المباني التي عرفتها قرطبة كانت غاية في الفخامة والعظمة، وإلاّ لما عمل الناصر على بناء الزهراء بهذه العظمة لتمييزها عن بقية مناطق قرطبة[10].

[1] المُجزّع: أي المقطع بألوان مختلفة، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج20، ص434.
[2] مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، ج1، د.ط، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد،1983م، ص163.
[3] المقري: المصدر السابق، ج1، ص526-527.
[4] في تأخر الناصر عن حضور صلاة الجمعة ثلاث مرات وشغفه ببناء مدينته قصة مشهورة مع قاضي قضاته منذر بن سعيد البلّوطي، سنوردها بشيء من التفصيل حين ذكرنا لقيام معارضة ضد عبد الرحمان الناصر في الفصل الرابع.
[5] المقري: المصدر السابق، ج4، ص357.
[6] أشار مؤلف مجهول إلى وجود صهريج كبير مملوء بالزئبق، وكان الزئبق إذا تحرك أعطى ضوءا كضوء البرق خصوصا عندما ينعكس على جدران المجلس المُذهبة والمفضضة ، أنظر: مجهول: المصدر السابق، ص164.
[7] الذهبي: المصدر السابق، ج8، ص267-268.
[8] النباهي: المصدر السابق ص71.
[9] محمد عد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس- الخلافة الأموية والدولة العامرية -، ط4، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م، ص436.
[10] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص131.

وكان من الطّبيعي أن يُظهر الناصر فلسفته الفكرية التي تقف وراء هذه الأعمال العمرانية والمادية التي تمثل تحولا عن التوجه الإسلامي الذي يقوم على بناء العقيدة والإنسان - بالدرجة الأولى- فقال شعرا يترجم آراءه[1].

هِمَمُ المُلوك إذا أرادوا ذكرها　　من بعدهم فبألسن البنيـــــان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم　　ملك محته حوادث الأزمـــان
إن البناء إذا تعاظـــم شــأنــه　　أضحى يدل على عظيم الشان[2].

لقد نسي الناصر أن هذه الفلسفة المادية لا تُمثل الرؤية الإسلامية بل هي - كما ورد في شعره - عرض لفلسفة الحضارات المادية والفرعونية التي لا تحمل رسالة إلهية توحيدية عامة تمثل خطابا لكل البشر، ومشروعا لإنقاذهم، وتحقيق إنسانيتهم وكرامتهم وعبوديتهم لله وحده[3].

وكان من جراء هذه الفلسفة المادية أن الغزوات التي قام بها الخليفة العظيم عبد الرحمان الناصر لم تسفر عن انتشار للإسلام أو فتح أقاليم جديدة ذات شأن، بل أسفرت على ازدهار مادي وإقامة مؤسسات عمرانية وشهرة سياسية ومجد عسكري وحسب!![4].

ومجمل القول أن مدينة الزهراء قد صُرف عليها الكثير من الأموال، فكانت ذات ثراء وفخامة كبيرة تسبي الألباب وتسحر العقول بجمالها، وقد أطبقت شهرتها الآفاق، وكانت دليلا صارخا على حياة الترف.

- **الزاهرة:**

اقتفى المنصور بن أبي عامر أثر الخليفة عبد الرحمان الناصر عندما شرع في بناء مدينة خاصة به سنة (368 /978م)، اتخذت اسم الزاهرة[5]، بُغية منه أن يسجل ما وصل إليه من نفوذ وسلطان[6]، والسبب المُضاف ما ذكره ابن عذارى بقوله: " أمر المنصور بن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره وأظهر استبداده، وكثُر حُسّاده، وخاف على نفسه في الدُّخول إلى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان، فتوثق لنفسه وكُشف ما سُتر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه..."[7].

[1] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، ص10.
[2] المقري: المصدر السابق، ج1، ص575 ؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص436.
[3] عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص10.
[4] نفسه، ص10.
[5] خليل إبراهيم السامرائي وآخران: المرجع السابق، ص207.
[6] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص247 ؛ عبد المجيد نعنعي: تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص468.
[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص275.

وعن بنائها يتحدث المقري فيقول: " وقد أقيمت الزاهرة على ضفاف نهر قرطبة الأعظم، ونسّق فيها المنصور كل اقتدار معجز ونظم، وحشد لها الصناع والفعلة وجلب إليها الآلات الجليلة وسربلها بهاءا يرد الأعين كليلة ..."[1].

نستشف من نص المقري مدى جهد المنصور في الرفع من فخامة وأبهة مدينته على الرغم من أن الزهراء مازالت زهرتها لم تذبل، وهذا يعكس لنا التنافس في الترف الذي أراده المنصور تخليدا لإسمه دون غيره، فماذا كان عليه لو اكتفى بالزهراء دون اختطاط الزاهرة.

وقد استغرق البناء في مدينة الزاهرة مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سنة 370هـ وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكُتابه وقُواده وحُجابه، فابتنوا فيها كبار الدور، وجليلات القصور، وتنافس الناس في النزول بأكنافها والحلول بأطرافها للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو في البناء حولها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة[2].

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء لمكانتها، فقد أخذ الكثيرون من أهلها في الرحيل عنها إلى الزاهرة ليكونوا بالقرب من صاحب الدولة[3].

وبفلسفة المنصور هذه التي أوحت له أن يُنشأ مدينة الزاهرة حتى تكون دلالة على العزة والمجد والسلطان الواسع يكون في الوقت ذاته قد ساهم في إخلاء مدينة الزهراء التي لا تقل فخامة ورونقا - كما رأينا سلفا-، إذ بمجرد أن اكتمل بناء الزاهرة تأهب أهل الزهراء في الرحيل عنها قاصدين صاحب النفوذ والسلطان.

وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا، وتزايد فيها البناء وأقيمت بها المنيات[4] والمنتزهات، والبساتين والرياض إلى جانب القصور الفاخرة، ومنها قصر ناصح، وقصر الزاهي الذي كسيت جدرانه بالمرمم، وكذا قصر السرور[5] الذي قال فيه الشاعر الأندلسي أحمد بن درّاج[6] قصيدة من إحدى قصائده ممتدحا وممجدا فيه هذا البناء:

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج1، ص579 ؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص275 ؛ جودة هلال ومحمد محمود صبح : قرطبة في التاريخ الإسلامي، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م ، ص70.

[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص275 -276 ؛ المقري: المصدر السابق، ج1، ص579.

[3] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص249.

[4] المنيات جمع منية، والمُنْيَة بضم الميم وسكون النون وفتح الياء هي عبارة عن حديقة واسعة، أنظر: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، د.ط ، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص117.

[5] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص249-250 .

[6] هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج المعروف بالقسطيلي، ينسب إلى بلد تسمى قسطلة، وهو معروف في الأندلس في جملة العلماء، والمتقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء، أنظر: ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخران، د. ط، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت، ص154.

دار السرور المعتلي شرفاتهــا فوق النجوم الزهري في استعلائها
وكأن غر المزن لما جادهـــا نشرت عليها من نفيس ملائهــــــا
وكأنما أيدي السعود تضـمنت إبداعها فبنـت على أهوائـــهـــــا
وكأن روحان الحياة وروحهـا مستنشق من نفـحات هوائهـــــا
فكأنما اصطفيت طلاقة بشرها من أوجــه الأحباب يوم لقائهـــــا
قامت على عمد الرخام كمثلما نسقت نجوم النظـم في جوزائهـــا[1].

ويبدو أن هذا القصر- حسب شعر ابن دراج- كان غاية في الفخامة والترف، وآية من آيات الفن المعماري.

ولم يقنع المنصور بمدينته الباهرة، فإنه بنى غيرها كمنية السرور ومنية أرطانية، ومنية ذات الواديين، وكانت من المنشئات البديعة والمنتزهات الفخمة[2]، وبما أن الناس - في التقليد - على دين ملوكهم نجد أن كبار القادة والمعاونين للخليفة قد تاهوا وتمادوا في حياة الدعة والترف، فهذا عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع (ت 397هـ /1006م) سار في هذا الاتجاه، وفيه يقول ابن بسام: " وتبجبح عيسى بعد مهلك المنصور بن أبي عامر (ت392هـ)في دولة ابنه عبد الملك، فتناهى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس ضياعا ودورا، فات الناس إحصائها "[3].

من خلال نص ابن بسام هذا يتضح لنا قدر البحبوحة والرخاء التي تمتع بها أصحاب السلطة وأتباعهم والتي أفضت إلى حياة مترفة انعكست على قصورهم ودورهم وضياعهم.

العمارة الدينية:

- المسجد الجامع بقرطبة :

على غرار العمارة المدنية التي أبدع وتأنق فيها الأندلسيون من مدن وقصور ومنيات، نجد أن المنشئات الدينية الإسلامية هي الأخرى قد لاقت عناية خاصة أصبحت مضربا للترف على مدار العصور المتلاحقة، حيث أُغدقت عليها الأموال الطائلة.

وكان من بين هذه المنشآت الدينية، والتي تميزت بترف وبذخ واضح - المسجد الجامع بقرطبة - حيث أن الهيئة التي جاء عليها هذا الجامع تُعد كافية لإبراز مدى السرف والترف الذي ساد بلاد الأندلس، خاصة المنشئات الدينية[4].

[1] ابن الكتاني: المصدر السابق، ص23-24.
[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص299.
[3] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج 1، ص124.
[4] نادر فرج زيادة :المرجع السابق، ص154.

ويعد المسجد الجامع بقرطبة أشهر وأكبر المساجد على الإطلاق، وهو آية من آيات الفن، ترك أمراء بني أمية بصماتهم عليه زيادة وتوسعا إلى أن انتهى بكامل روعته في عصر الخليفة الناصر[1].

كما عُّد هذا المسجد من أفضل روائع العمارة الإسلامية[2]، ونظرا لفخامة هذا المسجد وعظمة بنائه فقد كان يعمل عند الشروع في بنائه كل يوم ألف شخص من حُذّاق الصُنّاع، منهم ثلاثمائة في البناء، ومائتي نجار، وخمسمائة من الأجراء[3]، وكان له من العظمة والضخامة والسعة ما يحتاج بسببها إلى مئات الموظفين لخدمته، فبلغ عدد السدنة والمؤذنين والوقّادين ثلاثمائة رجل[4]، وبلغ الإنفاق عليه ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف دينار[5].

ويقول عنه الحميري: "المسجد الذي شاع ذكره من حيث الجمال، وكبر المساحة وإحسان الصنعة "[6]، وكان عبد الملك بن حبيب[7] يقول في هذا المسجد: "أفضل بيت يكون بالأندلس، وقد سمعت أن أبا سليمان بن حوط الله[8] (ت612هـ/1215م)شيخنا يقول: " لو كان لي حكم على أهل الأندلس لألزمتهم زيارة جامع قرطبة "[9].

من خلال قول أبي سليمان ندرك عِظم هذا المسجد وفخامته حيث أراد إلزام كل الناس بزيارة هذا الجامع لرؤية أبهته وحسنه ورونقه.

وكانت الأعمدة الرخامية التي مثلت إحدى روائع هذا المسجد تشترى جاهزة، حيث كان التجار يجلبونها من الأبنية القديمة، وتعد الأعمدة البديعة الموجودة فيه مثالا لذلك، فقد اشتراها خلفاء بني أمية[10].

---

[1] خليل إبراهيم السامرائي وآخران: المرجع السابق، ص181.

[2] أولغ غرابار: " نضرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الاسبانية " الحضارة العربية في الأندلس،ج1،ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م، ص897.

[3] المقري: المصدر السابق، ج1، ص564.

[4] مجهول: المصدر السابق ، ص183.

[5] نفسه، ص171.

[6] الحميري: المصدر السابق ،ص456.

[7] عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس بن مرداس السلمي، يكن بأبي مروان، كان بألبيرة وسكن قرطبة وقد رحل في طلب العلم، ثم عاد للأندلس وقد جمع علما عظيما وله مؤلفات في الفقه والتواريخ والأدب، أنظر: ابن الفرضي: المصدر السابق، ج1، ص312-313.

[8] هو داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمان بن سليمان بن عمر بن حوط الله الأنصاري الحارثي يكنى: أبا سليمان، من بيت علم وعفاف أصله من أندة حصن بشرق الأندلس، كان حافظا للقراءة، عارفا بإقراء القرآن بها أتقن ذلك عن أبيه، ثم أخيه الكبير أبي محمد، وكان عارفا بطرق الحديث، أطال الرحلة في بلاد الأندلس شرقها وغربها ، طالبا للعلم بها، حسن الخلق متواضعا ورعا، أنظر: ابن الخطيب: الإحاطة، المصدر السابق، ج1 ص503-504.

[9] ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، ج4، د.ط، دار الفكر للطباعة، لبنان ، 1995م، ص151.

[10] حسين مؤنس: المساجد ، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 1978م، ص126.

وقد تتابع الخلفاء من بني أمية في الزيادة فيه، فلما جاء عبد الرحمان الناصر أنفق في مئذنة المسجد وفي تعديل المسجد سبعة أمداد وكيلين ونصف كيل من الدراهم القاسمية[1].

وبلغ ارتفاع المئذنة ثمانين ذراعا أي ضعف ما كانت عليه المئذنة الأولى حتى مكان المؤذن، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرون ذراعا، ونصب في أعلاها سفود بارز رُكبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة[2].

أما أعظم زيادة في المسجد فقد تمت في عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة، بحيث لم يعد المسجد يتسع لجموعهم الغفيرة، وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمان الصقلبي بذلك، فجلبت الأحجار من جبال قرطبة، وأشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها، وأحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اثنتي عشر عقدا، واستمر البناء فيها أربع سنوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينار[3]، "وبها كمُلت محاسن هذا الجامع، وصار في حد يقصر الوصف عنه"[4]، كم شرع الحكم في تزيين المسجد بالفسيفساء الذي كان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع يتقن ذلك، كما أمر بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب سنة 355هـ، ونصب في قبلة الزيادة التي زادها مقصورة من الخشب منقوشة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولها خمسة وسبعون ذراعا، وعرضها اثنتان وعشرون، وارتفاعها ثمانية أذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش[5].

كما أمر بصنع منبر جديد "ليس على معمور الأرض أتقن منه ولا مثله في حسن صنعته"[6]، ويُذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صُناع، واستغرق العمل فيه سبع سنوات، وأن عدد درجاته تسع درجات، وعدد حشواته ست وثلاثون ألف حشوة سمرت بمسامير من الذهب والفضة رصعت بهما[7].

وفي سنة 356هـ هدم الحكم الميضأة التي كانت تقع بفناء المسجد ويجلب لها الماء من بئر الساقية والتي أنشأها هشام، وبنا بدلا منها أربع ميضآت في الجانبين الشرقي والغربي للفناء، وأجرى إليها الماء من عين في جبل قرطبة في قناة حجرية متقنة البناء، جعل في جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس، كما أجرى الماء إلى سقايات

[1] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص231.
[2] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص209.
[3] نفسه، ص210.
[4] المقري: المصدر السابق، ج1، ص561.
[5] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص211.
[6] المقري: المصدر السابق ،ج1،ص558 ؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص155.
[7] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص212.

من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع في الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية، وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن شخيص:

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف   من أعذب الماء نحو البيت تجريها

طهر الجسوم إذا زالت طهارتـــــها   ري القلوب إذا حرت صواريـــــها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقتـــرنـا   في أمّة أنت راعيها وحاميـــــــها[1].

أما المحراب فيعتبر أجمل عنصر معماري أضافه الحكم، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات وزينوه بلوحات من الرخام[2]، وأخيرا اختتم الحكم بناء المسجد بإقامة دار للصدقة في غربيه لتكون مكانا لتوزيع صدقاته[3].

ثم كانت الزيادة الأخيرة في مسجد قرطبة على يد المنصور بن أبي عامر، والتي امتدت طولا من أول المسجد إلى آخره، وبدأت في سنة 377هـ /987م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربي بدار الخلافة، فوصلت جملة البلاطات تسعة عشر بلاطة، وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء والمبالغة في إحكام البنية دون الزخرفة، وبالرغم من ذلك فان الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا[4].

وقد قام المنصور بنزع ملكية الأراضي والدور الواقعة في شرق الجامع، وتعويض أصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار، وبلغ عدد سواري المسجد بعد هذه الزيادة ألف وأربعمائة وسبع عشر سارية، وعدد ثرياته مائتي وثمانين ثرية[5].

وللمسجد عدد كبير من النوافذ، ومما قيل فيها أنها تقرب من ثلاثمائة وستين نافذة بعدد أيام السنة، وبأن الشمس تدخل كل يوم من إحدى هذه النوافذ ثم تنتقل للتي تليها ولا تعود لها إلا في العام التالي[6].

---

[1] ابن عذارى: المصدر السابق ،ج2،ص240.
[2] يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص213.
[3] نفسه، ص213.
[4] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص287.
[5] نفسه، ص287.
[6] المقري: المصدر السابق، ج1، ص519.

وقد عد هذا الجامع مفخرة من مفاخر قرطبة، وفي ذلك يقول القاضي أبو محمد بن عطية[1]:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة   من هن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثنتان والزهراء ثالثة   والعلم أكبر شيء وهو رابعها[2].

ومن خلال تتبعنا لهذه الزيادات التي طرأت على المسجد الجامع بقرطبة - خاصة خلال القرن الرابع الهجري- نشعر ونقدر مدى الانغماس في الترف والتنافس الذي كان قائما بين الخلفاء حتى في بيوت الله.

فهذه الظاهرة المادية التي نلاحظها على بيت من بيوت الله-المسجد الجامع بقرطبة- تكاد تسعى أن تحوله إلى شبه متحف أو كنيسة، وتبتعد به عن البساطة والتجريد والطبيعة الجميلة التي تقاوم أي تكثيف للجوانب المظهرية والحسية[3].

ومجمل القول نجد أن عهدي الخلافة الأموية والدولة العامرية اللذين انتظما القرن الرابع الهجري (300هـ - 399هـ)كان التكالب على المادة ومظاهر الثراء والبذخ هي السمات الغالبة على جميع مناحي الحياة في الأندلس.

[1] هو الفقيه القاضي الحافظ أبي محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج1، ص679.

[2] نفسه، ج1، ص153.

[3] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، المرجع السابق، ص14.

الفصل الثالث: حياة الترف والبذخ على عهد ملوك الطوائف(400-484هـ)

1- مظاهر الترف الاجتماعية:

أ- كثرة الجواري والرقيق

- الجواري
- الرقيق

ب- مجالس اللهو والغناء

ج- الطعام والشراب

د- اللباس

هـ- الأعراس والاحتفالات

2- مظاهر الترف العمرانية

لقد استمرت ظاهرة التكالب المادي ومظاهر الترف والبذخ في عهد ملوك الطوائف (400-484هـ)[1]، على الرغم من الصراعات التي كانت دائرة بين الإمارات الأندلسية[2]، وكانت الطبقة الحاكمة في الجملة ومن يلوذ بها فضلا عن بقية أعضاء الطبقة الأرستقراطية تتفنن في بناء القصور وابتداع ألوان الزخارف فيها وكانت قصور هؤلاء الأثرياء مثوى لفنّي الغناء والرقص وما يدخل بابهما من صور الترف، وكان معظم هؤلاء الأثرياء من المعتكفين على الموسيقى والقينات الحسان، وهم ينفقون في سبيل ذلك الأموال الطائلة[3].

لقد وقع نوع من التنافس على مظاهر الترف الاجتماعية و العمرانية بغية إظهار القوة والعظمة بين ملوك الطوائف في المدن الأندلسية المختلفة، وكانت كل منها تحاول أن تكون الأعظم والأقوى والأرقى في مظاهر الحياة المادية.

1- مظاهر الترف الاجتماعية

أ- الاستكثار من الجواري والرقيق:

- الجواري:

سبق وأن قلنا أن أول ظاهرة من مظاهر الترف والثراء في الأندلس هي ظاهرة الاستكثار من الجواري، وقد كان لتجارة الرقيق في الأندلس، ولاسيما الجواري سوق رائجة تدر كسبا باهظا لأصحابها، فاحترفها كثير من الناس، وكان بعض التجار يشتري جواريه فيدفع بهنّ إلى من يعلمهنّ الغناء، والأدب و الشعر لكي يرتفع مستواهنّ المادي والعقلي[4].

وقد شجع هؤلاء النخّاسين على ذلك بعض الأمراء الذين أسرفوا في اقتناء الجواري، وبالغوا في أثمانهن[5]، من بين هؤلاء الأمراء المعتضد بن عباد[6] (ت 461هـ)، الذي يُذكر عنه أنه كان: "كلف بالنساء، وخلط في أجناسهن فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد نظرائه، حتى أنه عند وفاته خلّف نحوا من سبعين جارية "[7].

---

[1] يشغل عهد ملوك الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاما منذ انهيار الخلافة الأندلسية، على اثر انهيار الدولة العامرية (399هـ /1009م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى، وانقسامها إلى وحدات متعددة تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك الطوائف تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها أية رابطة، إلا أن تكون المنافسة، أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع، وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الانتحارية، هو قوام عصر الطوائف، أنظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس – دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط4، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م، ص3.

[2] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، المرجع السابق، ص19.

[3] محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، ص441.

[4] سعد بوفلاقة: الشعر النسوي الأندلسي، د.ط ، دار الفكر، بيروت، 2003م، ص77.

[5] نفسه، ص77.

[6] هو أبو عمرو المعتضد عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، صاحب اشبيلية، أمير اشبيلية ابن قاضيها أبي القاسم، حكم أشبيلية بعد وفاة أبيه، أنظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ط2، دار صادر، بيروت، 1991م، ص615.

[7] ابن الأبار: الحلة السيراء، المصدر السابق، ج2، ص43.

أما ابنه المعتمد[1](ت 488هـ) فقد خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد وجواري المتعة وإماء الخدمة[2]، وقد بلغ الترف بالمعتمد في سبيل إرضاء حظيته اعتماد الرميكية[3] وجواريه أن يصرف أموالا كثيرة، حيث أن اعتماد زوجته شاهدت ذات يوم بأشبيليه نساء البادية يبعن اللبن في القرب وهنّ رافعات عن سوقهن في الطين، فقالت له: أشتهي أن أفعل أنا وجواريَ مثل هؤلاء النساء، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصير الجميع طينا في القصر، وجعل لها قربا وحبالا وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين، فيقال: "أنه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين، فقالت له: والله ما رأيت منك خيرا قط، فقال لها: ولا يوم الطين؟ تذكيرا لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فاستحيت وسكتت"[4].

ويُعقّب المقري على هذه الحادثة بقوله: ولعل المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القصة، حيث قال في بناته :

يطأن في الطين والأقدام حافية   كأنهن لم تطأن مسكا وكافورا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذر الطيب حتى يطئوه بأقدامهم، زيادة في التنعم[5].

الشاهد في هذه في القصة هو مدى الأموال التي صرفها المعتمد في سبيل استمتاع جواري قصره، حيث لا تهمه الأموال بقدر ما يهمُّه رضا جواريه.

أما ملك شنتمرية[6] هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري[7] (ت436هـ /1044م)

---

[1] هو أبو القاسم محمد بن المعتمد بالله عباد بن الظافر المؤيد بالله محمد بن إسماعيل اللخمي، المعتمد على الله: صاحب أشبيلية وقرطبة وما حولها، ولد في ربيع الأول سنة 431هـ بمدينة باجة بالأندلس، وولي أشبيلية بعد وفاة أبيه المعتضد بالله سنة 461هـ، ثم امتلك قرطبة وكثيرا من المملكة الأندلسية، فأصبح أكبر ملوك الطوائف، له في الأدب باع وساع ينظم وينثر توفي بأغمات سنة 488هـ على حال يُوحش سماعها فضلا عن مشاهدتها، أنظر: ابن قنفذ: الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ص260-261.

[2] ابن الأبار: الحلة السيراء، المصدر السابق، ج2، ص55.

[3] الرميكية: كانت سُرَية المعتمد وقد اشتراها أيام أبيه المعتضد من رميك بن حجاج فنسبت إليه، فأفرط في الميل إليها وغلبت عليه، ولأن اسمها "اعتماد" فقد اختار لنفسه لقبا يناسب اسمها، فلقب نفسه "بالمعتمد"، وتوفيت اعتماد قبل زوجها المعتمد بأيام فقط، أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج4، د.ط، دار صادر، بيروت، 1968م، ص428.

[4] المقري: المصدر السابق، ج1، ص440.

[5] نفسه،ج4، ص273.

[6] شنتمرية: مدينة بالأندلس من مدن اكشوبنة، وهي من أول الحصون التي تعد لبنبلونة، وهي أتقن حصون بنبلونة بناية، وأعلاها سمكا، وهي تقع على البحر، وهي مدينة متوسطة القدر، حسنة الترتيب، فيها مسجد جامع ومنبر، غيها الكثير من المراكب، يكثر بها العنب والتين، بينها وبين شلب ثمانية وعشرون ميلا، وفيها دار لصناعة الأساطيل، أنظر: الحميري: الروض المعطار، ص347.

[7] هو أبو محمد بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف ببن الأصلع، كان من أكابر برابرة الثغر، ورث ذلك عن والده، أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ج5، ص109.

فقد كان من أكثر الملوك همة في اقتناء القينات، وقد اشترى جارية الطبيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة آلاف دينا، لما أحجم عنها الملوك لغلاء ثمنها، كما اشترى كثير من الجواري الحسِنات المشهورات بالتجريد طلبهن في كل جهة[1]، وكان مجلس أنسه أشهر مجالس ملوك الأندلس وأمرائها، وقد اجتمع لديه مائة وخمسون جارية ومغنية[2].

وأما المعتصم بن صمادح[3] (ت443هـ / 1051م) فقد كان كثير الانتقاء للجواري خاصة منهن اللواتي كن يقلن الشعر مثل جاريته غاية المنى التي اختبرها يوما فقال لها:

أجيزي (مجزوء الخفيف)

فقالت: اسألوا غاية المنى

من كسا جسمي الضنا

قال: وأراني مولهًا

فقالت: سيقول الهوى أنا

اشترها المعتصم لما علم أنها تقول الشعر وتحسن المحاضرة[4].

يُستفاد من هذا أن الجواري اللواتي هن متعلمات كن مفضلات على غيرهن من غير المتعلمات، والملاحظ أن المرية من أكثر المدن الأندلسية احتواء للجواري، والشيء نفسه يقال عن غرناطة في هذه الحقبة من تاريخ الأندلس[5].

---

[1] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص308.

[2] أسعد حومد: محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988م، ص110.

[3] هو محمد بن أبي الأحوص معْنُ بن أبي يحي محمد بن صمادح، يكنى أبى يحي، تلقب بخمسة ألقاب معز الدولة، المعتصم بالله ،الواثق بفضل الله، الرشيد، سراج الدولة، كانت ولادته سنة تسع وعشرين وأربعمائة (1037م)، كان حسن السيرة في رعيته وجنده وقرابته، توفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة (1091م)، كان مدة إمارة المعتصم بالمرية إحدى وأربعين سنة(443- 484هـ) أنظر: ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص39-44؛ العذري: المصدر السابق، ص84؛ مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح (443- 484هـ) /(1051-1091م)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص53-60.

[4] المقري: المصدر السابق، ج4، ص286-287.

[5] مريم قاسم طويل: المرجع السابق، ص79؛ خميسي بولعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ،قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة باتنة، 2006م، ص77.

ولم يقتصر الأمر على الطبقة الخاصة من الأمراء فحسب بل تعداه إلى الطبقة العامة إذ يصف لنا ابن حزم بعضا من طباع صديقه محمد بن أبي عامر بقوله: "ولقد كان أبو عامر المحدث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوك القتاد[1]، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبة نفارا وذلك الأنس شرودا والقلق إليها قلقا منها، ونزاعه نحوه نزاعا عنها، فيبيعها بأوكس الأثمان، هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا عشرات ألوف الدنانير عددا عظيما"[2].

وقد بلغ حب اقتناء الجواري عند الطبقة العامة مبلغا كبيرا وصل في بعض الأحيان إلى أن يقوم بعض الأندلسيين بمحاولة الانتحار من أجل جارية، فيروي لنا ابن حزم(ت456هـ /1064م) بأن رجلا أندلسيا باع جارية كان يجد لها وجدا شديدا، لفاقة أصابته، ولم يظن أن نفسه تتبعها ذلك التتبع، فلما حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسي تخرج، فأراد أن يسترجع جاريته مقابل المال الذي دفعه له المشتري، غير أن المشتري رفض ذلك، فالتجأ البائع للملك، وشرح له حاله فرق له الملك، وأمر بإحضار المشتري، الذي أظهر للملك من الرغبة والوله بالجارية كما في نفس البائع، فاحتار الملك وأمر بدفع مبلغ كبير من المال للمشتري، غير أنه رفض ذلك الأمر، ولم ير الملك وسيلة سوى ذلك فتعذر للبائع، فلما رأى البائع ذلك جمع يديه إلى رجليه، وألقى بنفسه من علِ، فارتاع الملك، وقال له: ما حملك على هذا؟ فقال له: لا سبيل إلى الحياة بعدها، وهم أن يرمي بنفسه ثانية، فقال الملك للمشتري إن فعلت كما فعل تكون أشد حبا لها، وإن لم تفعل فانك لا تحبها كحبه، فامتنع الرجل عن ذلك، فحكم الملك بها للبائع[3].

وكان شراء الجواري بالأندلس والتسري بهنّ مخرج لمن لم يكن يريد الزواج في بعض الأحيان، وقد أورد السقطي ما يشير إلى ذلك بقوله: "أُتفق لرجل من أهل مدينة ألبيرة[4]حلف على ترك التزويج بالأندلس يمينا لم يجد لها مخرجا، فتوجه إلى قرطبة، وهي إذ ذاك حضرة الأندلس، دار الملك وقاعدة العلم، واشترى بها جارية لم يكن يرى الراءون مثلها بهجة وجمالا "[5].

من خلال ما سبق يتضح لنا جليا أن الجواري قد كثرن في هذا العصر ودخلن بيوت الخاصة والعامة على حد السواء.

---

[1] القتاد: شجر له شوك، أنظر: الرازي: المصدر السابق، ص218.
[2] ابن حزم: طوق الحمامة في الألفة والألاّف، د.ط، مكتبة عرفة، دمشق، د.ت، ص70.
[3] نفسه، ص120-121.
[4] من كور الأندلس، جليلة القدر، نزلها جند دمشق من العرب وكثير من موالي الإمام عبد الرحمان بن معاوية، وهو الذي أسسها واسكنها مواليه، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص29.
[5] السقطي: المصدر السابق، ص54.

- **الرقيق:**

إلى جانب انتشار الجواري بكثرة على عهد ملوك الطوائف، عرفت الأندلس كثرة الرقيق أيضا كظاهرة أخرى من مظاهر الترف، إذ لم تخل دار ثري في الأندلس في هذا العصر من الرقيق، ويتوقف ذلك إلى عاملي الثراء والحاجة إليهم[1].

إذ أن ملوك الطوائف لما عرفوا حقيقة سياستهم، وأنها لا يمكن أن تنال رضا الناس مهما أقاموا من خلائف أو قربوا من فقهاء أو علماء، نراهم قد ركزوا اهتمامهم على اتخاذ قوة مادية عسكرية يستطيعون بها أن يحققوا أهدافهم، تمثلت تلك القوة في الرقيق، بغض النظر عن أصلهم ودينهم، وعلى هذا تدفقت عليهم أعدادا غفيرة من نصارى الشمال نظير أجور معينة، ولم تشذ عن ذلك أي مملكة من ممالك الطوائف الرئيسية[2].

ففي أشبيلية كان القاضي أبو القاسم بن عباد أول من استكثرهم نظرا لثرائه الفاحش[3]، أما في بلنسية[4] فقد زاد الإقبال على اقتناء الرقيق والاستكثار منهم بحكم موقعها البحري، واتصالها بممالك النصارى[5].

وتعتبر أسماء العبيد ذكورا وإناثا مؤشرا قويا على رغبة دمجهم من طرف السادة في المجتمع، ومن بين هذه الأسماء ذكورا نجد: مسرور، خيران، وهذا لحصول العبد على المواطنة، والاندماج الاجتماعي، باعتباره فردا من هذا المجتمع والاعتراف بخصوصياته ومميزاته[6].

وقد استطاع الرقيق فيما بعد أن يكونوا طبقة هامة في المجتمع الأندلسي كان لها الدور الخطير في مساندة السلطة الأرستقراطية وتوطيد نفوذها[7].

ب- مجالس اللهو والغناء:

يُعتبر عصر الطوائف(399-484هـ) من أزهى العصور التي شهدت فيه الموسيقى والغناء ثورة حقيقية فهو بحق عصر الغناء والموسيقى، نظرا للبذخ والترف والثراء التي شهدته البلاطات المختلفة، ومن ثمة فإن الغناء ولد في السلطة و البلاطات وليس معنى هذا أن العامة لم تهتم به بل بالعكس فقد عُرف عن أهلها المرح والإقبال على الملاهي والغناء[8].

---

[1] صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري، د.ط، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص72.

[2] محمد عبد الحليم رجب: العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا المسيحية، د.ط، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، د.ت، ص281.

[3] ابن بسام: المصدر السابق، ق02، مج1، ص16.

[4] تقع في شرق الأندلس، وهي مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس، في مستو من الأرض، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحط وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وهي على نهر جار ينتفع به، أنظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص47.

[5] خميسي بولعراس: المرجع السابق، ص69.

[6] نفسه، ص68.

[7] كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي(95-495هـ / 714-1102م) - دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، د.ت، ص241.

[8] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص247.

ويرى ابن خلدون أن الغناء يحدث في العمران إذا تجاوز حد الضرورة، فإنه لا يرغب في هذه الصناعة إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية، ولا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم، تفننا في مذاهب اللذة[1].

وفي هذا العصر تعددت مراكز الفن والغناء بعد تراجع الدور القرطبي، حيث أحاط ملوك الطوائف أنفسهم بمشاهير المغنيين والمغنيات[2]، ويعبر عن ذلك ابن الكردبوس فيقول: "وصادف أيامه أي أيام الفونسو السادس ملك قشتالة نفاقا كثيرا بين المسلمين، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئيهم بأنجاد الرجال بشرب الخمور واقتناء القيان، وركوب المعاصي وسماع العيدان"[3].

وكثر عدد المغنيين والمغنيات في بلاط ملوك الطوائف، واشتهرت أشبيلية بالخلاعة واللهو وحب الموسيقى، حتى أنه قيل إذا مات عالم بأشبيليه فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة، وإن مات مطرب بقرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية[4] .

وبلغ الولع بالغناء مبلغا عظيما في اشبيلية حتى أن البعض من حكامها طلبوه على فراش مرض الموت[5]، فالمعتضد بن عباد(ت461هـ / 1069م) "حين تصرّمت أيامه وتدانى حمامه استدعى مغنيا يغَنيه، ليجعل ما يبدأ به فألا "[6]، فأول ما غنى:

نطوي الليالي علما أن ستطوينا فشعشعيها[7] بماء المزن واسقينا

فتطير من ذلك، ولم يعش بعده سوى خمسة أيام، وقيل أنه ما غنى منها إلا خمسة أبيات[8].

ويعتبر عهد المعتمد بن عباد من أزهى العهود موسيقى وغناء، حيث كان ميالا للاستكثار من الجواري والمغنيات، فغلت أثمانهن وندرت أصنافهن، بسبب غلائهن الفاحش[9]، ومن القرائن الدالة على انتشار مجالس الغناء بأشبيلية انتشارا واسعا ما رواه ابن بسام عن المطرب أبو بكر الأشبيلي[10] قوله: " حضرت مجلس الرشيد بن المعتمد بن عباد

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص435.
[2] خميسي بولعراس: المرجع السابق، ص194.
[3] ابن الكردبوس: المصدر السابق، ص77.
[4] ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص70.
[5] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص189.
[6] المقري: المصدر السابق، ج4، ص96.
[7] شعشع الشيء: خلط بعضه ببعض، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج21، ص277.
[8] المقري: المصدر السابق، ج4، ص 96.
[9] لخميسي بولعراس: المرجع السابق، ص194.
[10] هو محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهري ذو الوزارتين أبو بكر، أصله من بسنبوس إحدى قرى شلب، ولد سنة 422هـ /1031م، قدمه المعتمد وزيرا ومشيرا، وكانت ملوك الأندلس تخافه خاصة من بذاءة لسانه وبراعة إحسانه، قتل من طرف المعتمد سنة 477هـ /1086م، ودفن بجانب القصر، انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، المصدر السابق، ج2، ص131.

وعنده الوزير أبو بكر بن عمار فلما دارت الكأس، وتمكن الأنُس، وغُنيت أصواتا ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب، فارتجل يخاطب الرشيد:

ما ضرّ أن قيل إسحاق وموصله ها أنت أنت وذي حمص وإسحاق

أنت الرشيد فدع من قد سَمِعْتَ به وإن تشابه أخلاق وأعـــــــراق

لله درك دَارِكْهَا مشعشعـــــــة واحضر بساقِيك ما قامت بنا ساق"[1].

وفي نفس السياق نجد في قول ابن خلدون ما يؤكد ذلك لما قال: "أنه طما من صناعة الغناء بأشبيليه بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة الإفريقية والمغرب، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها "[2].

وإذا تركنا أشبيلية وانتقلنا إلى طليطلة نجدها هي الأخرى قد كان لها نصيب وافر من مجالس اللهو والغناء، حيث كانت أسرة ذي النون الحاكمة لها في ذلك الوقت قد بلغت من البذخ والترف الغاية. وعُرف عن المأمون بن ذي النون (ت460هـ/ 1068م) ازدحام مجالسه بالمغنيين وفي ذلك وصف لابن حيان يصف فيه تفاصيل بعض من مجالس المأمون بقوله: " وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء الذين إستحضرهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته، وتنعيم أسماعهم بلذات أغانيه...، فاحتفل لهم بمجلس قد نَضُد[3]، وأحضر فيه جميع آلات الأنس، فلما استوى بالقوم مجلسهم...، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ونظمت نوبة المغنين زمرا، فهاجوا الأطراب، واستخفوا الألباب، ونقلوا الطباع فجاءوا بأمر عجاب، بذهم[4] فيهم سابق حلبتهم، المُحسد من جماعتهم الإسرائيلي ذي الزائد إحسانه على إبراهيم الموصلي، صديق إبليس، الظريف في فتنة، وتخايله بالماخوري[5] المكنون الذي اغتذى في باطنه نسيج وحده، يزدهي العيدان جسّه[6]، ويخرس الأطيار شجوه، قاتله الله من آخذ بالقلوب، فطربوا وطرب المأمون ليلتئذ على وفُور حِلمه، وكان الذي غناه فيها ذيٌ صوتا شجيا...، فطمح بابن ذي النون الإطراب، حتى

---

[1] المقري: المصدر السابق، ج4، ص271-272.

[2] ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص435؛ و قد اشتهر بالغناء في اشبيلية أبو بكر الاشبيلي والسوسي، أنظر: يوسف حسين دويدار: المرجع السابق، ص278 .

[3] النضد: ضم المتاع بعضه إلى بعض متسقا أو مركوما، أنظر: المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، ج2، ط1، مكتبة أسامة بن زيد، سوريا، 1979 م، ص308.

[4] بذّ القائلين: أي سبقهم و غلبهم، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج9، ص394.

[5] الماخوري: لون من النغم، أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق04، مج1، ص136.

[6] جسّه: المس باليد، و قد جسّه بيده، و اجتسّه، أي مسّه ولمسه، أنظر: الزبيدي: المصدر السابق،ج15، ص499.

حنّ حنين النّاب[1]، وخلع عليه ثوبا من التُسْتري الأخضر، مطرزا بالذهب ووصله بمائتي دينار ذهبا، ثم فضّ الصِلات والخلع في سائر الطبقات"[2].

يُفهم من خلال هذا النص مدى ولع المأمون بالغناء والمغنيين وكذا وصلهم بأنواع الصلات.

هذا وقد كانت المرية هي الأخرى تتذوق الفن أيام بني صمادح، فقد اجتذبت الكثير من أصحاب المواهب في الغناء والموسيقى[3]، أما سرقسطة[4] فكانت تُعزف كل الألحان ونغمات الأوتار في مجالسها[5].

وكانت أسرة بني هود تقيم مجالس الأنس، من بين هذه المجالس مجلس ضمّ المقتدر بالله ونُدمائه، ومن بينهم الوزير اليهودي" أبو الفضل بن حسداي[6] "[7]، "فصدحت في ذلك اليوم الغواني وأفصحت المثالث والمثاني"[8].

ولما أعرس المستعين بالله أحمد بن المؤتمن بن هود ببنت الوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية، احتفل أبوه المؤتمن بهذه المناسبة[9] "احتفالا شهّره وأبدع فيه إبداعا راق من حضره وبهره، فإنه أحضر فيه الآلات المبتدعة و الأدوات المخترعة ..."[10].

أما بلنسية في عصر الطوائف فقد كانت من أهم مراكز الغناء الموسيقي في الأندلس،فقد عُرف أهلها بمرحهم وإقبالهم على الملاهي والغناء[11]، وفي ذلك يقول العذري: "ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من

---

[1] النّاب: النّاقة المسنّة سموها بذلك حين طال نابها وعظم، أنظر: ابن سيدة: المصدر السابق، ج10، ص502.
[2] ابن بسام: المصدر السابق، ق04، مج1، ص135-136.
[3] السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ج2، ص104.
[4] قاعدة الثغر الأعلى وهي أرض طيبة، وهي مدينة بيضاء، قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء، والتفت عليها أنهارها الأربعة بها رياضها مرصعة مجزعة، ومن منتزهاتها مجلس الذهب وقصر السرور، انظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص181.
[5] السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ و حضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، د.ط، الإسكندرية، 1998م، ص154.
[6] هو أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي، من أهل سرقسطة، نال حظا جزيلا من صناعة الشعر والبلاغة، وبرع في علم العدد و الهندسة والنجوم، و فهم صناعة الموسيقى، وحاول عملها، وأتقن علم المنطق وكان له نظر في الطب، أنظر: ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص499.
[7] السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، المرجع السابق، ص108.
[8] المقري: المصدر السابق، ج1، ص640 .
[9] السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ج2، ص108 .
[10] المقري: المصدر السابق، ج1، ص641.
[11] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص247 .

ذلك وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني فيقولون: عند فلان عودان[1] وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أخبرت أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة، وأما دون الألف فكثيرات "[2].

ولعلّ طبيعة بلنسية الساحرة التي طالما ألهمت شعرائها وفجّرت ملكاتهم في الروضيات والزهريات، وما اشتهرت به من كثرة البساتين والجنان الممتدة على ضفّتي نهرها الأبيض ووفرة مياهها التي تشق المنتزهات وتخترق الجنّات كالحيّات الأراقم كان له أعظم الأثر في تقدم فن الغناء والنغم، فكثرت مجالس اللهو والطرب لسماع نغمات المثاني والمثالث[3]، وكان الحاضرون عادة يفترشون الوسائد و يأكلون ويشربون، ويطربون، وقد يرقصون على إيقاع الدفوف والمزامير[4]، ويصف الشاعر ابن خفاجة[5] مجلسا من تلك المجالس في بلده بلنسية فيقول:

فكـم يـوم لهوٍ قـد أدرْنا بأفْــقِه نـجـوم كؤوس بين أقـمار نــدمان

وللقصب والأطيار ملهى بجزعه فما شئت من رقصٍ على رجع ألحان[6].

والجدير بالذكر أن مجالس الأنس تعددت على وجه الخصوص في عهد الأمير المنصور عبد العزيز (411-452هـ) الذي كان يقيمها غالبا في منيته المعروفة باسمه[7].

وكانت غرناطة كغيرها من مدن الأندلس، تنتشر بها حركة الموسيقى والغناء على نطاق واسع[8]، حيث أن الموسيقى في الأندلس لم تقتصر على طبقة خاصة كما في المشرق بل عمّت الشعب كله[9]، وهكذا اهتم مجتمع غرناطة بالغناء والموسيقى على حد قول ابن الخطيب: "والغناء بمدينة غرناطة فاشٍ حتى في الدكاكين التي تجمع كثيرا من الأحداث"[10].

---

[1] العود من آلات الطرب، وهو يُعتبر من الآلات الوترية ويسمى في الاسبانية ALaud، ومن آلات الطرب الأخرى الكريج (Carrizo) وهي آلة مستديرة الشكل مزوّدة بأوتار مشدّدة ومنها أيضا القتار (Cuitarra) والرباب(Rabel) انظر: كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص247.

[2] العذري: المصدر السابق، ص18 .

[3] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص248 .

[4] السيد عبد العزيز سالم: " صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة و عصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج "، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج19، سنة 1976-1978م، ص64.

[5] هو إبراهيم بن الفتح بن عبد الله بن خفاجة، أبو إسحاق الخفاجي شاعر مشهور، متقدم، مبرز، حسن الشعر جدا خبيث الهجاء، وشعره كثير مجموع، كانت له همة رفيعة، توفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، لأربع بقين من شوال منها وهو ابن اثنين وثمانين سنة، انظر: الضبي: المصدر السابق، ج1، ص265-266.

[6] المقري: المصدر السابق، ج1، 689.

[7] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص248.

[8] مريم قاسم الطويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر(403-483هـ)-(1012-1090م)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص137.

[9] نفسه، ص257.

[10] ابن الخطيب: المصدر السابق، ج1، ص137.

وخلاصة القول لو حولنا استقصاء ما ذكره المؤرخون حول مجالس الطرب والغناء في عهد ملوك الطوائف لطال بنا المُقام، و لكن قد يكون من المناسب أن نكتفي بذكر ما قاله الباحث السيد عبد العزيز سالم حول هذا الموضوع حيث قال: " أما مجالس الأنس والطرب فكانت من الأمور المألوفة و المشاهد اليومية في حياة أهل الأندلس، وقد شُغف الأندلسيين بهذه المجالس ووُلِعوا بها "[1]، ومن القرائن الدالة على أن الأندلسيين كانوا كثيري التعلق بهذا الفن هو انتشاره في القصور والحقول، وكذا الأسواق والحوانيت والبيوت والمنتزهات[2].

ج- الطعام و الشراب:

تفنن أهل الأندلس في صُنع الكثير من ألوان الطعام، حتى صارت موائدهم حافلة بالأنواع المتعددة من الأطعمة والحلوى وأصناف الفواكه والأشربة[3]، وكان عهد ملوك الطوائف العهد الأكثر ترفا و رفاهية حيث عُرفت في عهدهم جملة من المأكولات الباذخة، مثل" أطعمة طيورية، جوامد وباردة، وصنوفا من المصوص[4]، والأشربة والطباهج[5]"[6].

وانتشر في عصر الطوائف من بين أطايب الطعام الفاكهة بأنواعها المختلفة والحلوى وذلك دليل على توفر مواد الترف في الطعام الأندلسي[7]، حيث يذكر القاضي أبو الوليد الوقشي[8] (ت489هـ/1096م) أنه حضر يوما مجلس ابن ذي النون فقُدّم نوع من الحلوى والفاكهة، فانكب الجماعة من خواصه على الحلوى يأكلونها بشراهة، وقد عُرف هذا النوع باسم آذان القاضي، وعُرفت الفاكهة التي قدمها لهم بعيون البقر[9].

والظاهر أن عادة الإكثار من الطعام خصوصا أطايبه كانت منتشرة في هذا العصر، ومعها انتشرت بعض الأعراض الناجمة عنها، وهو ما حدا ببعض الشعراء لاغتنام الفرصة من أجل هجاء كل من يكثر من هذه العادة، ومن ذلك ما قاله السميْسر[10](ت480هـ/1087م)

---

[1] السيد عبد العزيز سالم: صور من المجتمع الأندلسي، المرجع السابق، ص63.

[2] مريم قاسم الطويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، المرجع السابق، ص78.

[3] خميسي بولعراس: المرجع السابق، ص97.

[4] المصوص: لحم يُنقع في الخل، انظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج46، ص4217.

[5] الطباهج: هي الكُباب وهو اللحم المشوي أو المقلو، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق،ج4، ص433.

[6] ابن بسام: المصدر السابق، ق04، مج1، ص135.

[7] نادر فرج زيارة: المرج السابق، ص108.

[8] هو هشام بن أحمد بن خالد الكناني من ثغر وقشة بالأندلس، كان متوسعا في المعارف، من أهل العلم، واعتنى بعلم الهندسة والمنطق والفقه والأثر والنحو والشعر والخطابة، والتاريخ وهو جميل الصُحبة مليح النادرة، كثير الدُعابة، انظر: الرشاطي وابن الخراط: المصدر السابق، ص91.

[9] المقري: المصدر السابق، ج4، ص138.

[10] هو خلف بن فرج الألبيري، أبو القاسم المعروف بالسميسر: شاعر هجاء أصله من ألبيرة (ELVIRA) وبيته في غرناطة انظر: الزركلي: المصدر السابق، ج2، ص311.

المعاصر لملوك الطوائف ، حيث قال:

يا آكلا كل ما اشتهــــاه وشاتم الطب والطــبيب
ثمار ما قد غرست تجني فانتظر السقم عن قريب
تجمع الـداء كــل يــوم أغذية السوء كالذنوب[1].

وقد أشارت النصوص إلى أن البعض كانوا يفضلون إظهار الترف المفرط في موائد الطعام، وهو ما تشير إليه حادثة تعرض لها المعتصم بن صمادح (ت484هـ/1091م) حين أحسن للنحلي البطليوسي[2] فلما غادره البطليوسي إلى أشبيلية مدح المعتمد بن عباد هناك وذم ابن صمادح بقوله:

أباد ابن عباد البر برا وأفنى ابن معن دجاج القرى

ونسي ما قاله حتى حل بالمرية ثانية، فأحضره ابن صمادح لمنادمته، وأحضر للعشاء موائد ليس فيها غير دجاج، فقال النحلي: يا مولاي، ما عندكم في المرية لحم غير الدجاج؟ فقال: إنما أردت أن أكذبك في قولك: " وأفنى ابن معن دجاج القرى "[3].

نستشف من خلال هذه الرواية بأن ابن صمادح وهو أحد ملوك الطوائف قد كان كثير الإسراف في الطعام، بدليل ألوان الدجاج المختلفة التي وُضعت على الموائد، مما يعطي لنا صورة واضحة بتفنن الأندلسيين في صناعة ألوان الطعام الفاخرة لاسيما أيام استفحال ظاهرة الانقسام في الأندلس.

وقد وصف أحد شعراء الأندلس في قصيدة طويلة زمن ملوك الطوائف أنواع الأكلات التي كانت منتشرة حينذاك، و التي توحي في مجملها على أنها أطعمة فاخرة تنم عن ترف في المعيشة خاصة لدى الطبقة الأرستقراطية، ومن بين ما ذكر: " اللحم مع الشحم، طوابق الكبش الثِّني، البيض في المقلاة بالزيت اللذيذ الدهن، الثريد، الإسفنج، الأرز باللبن، الجبن، الكسكسو[4]، العصيدة [5]"[6].

أما عن الشراب فقد انتشرت في الأندلس زمن ملوك الطوائف صنوفا مختلفة من الأشربة، كالمِزر[7] والدوشاب[8] ونبيذ الأزاذ[9] والداذ[1]، كما انتشر شرب الخمر الذي كان قاسما مشتركا بين جميع ملوك الطوائف[2]، زيادة منهم في الانغماس في الترف.

---

[1] الصفدي: المصدر السابق، ج13، ص368.
[2] هو أبو الوليد البطليوسي، يُعرف بالنحلي وكان يُحسن الشعر، انظر: المقري: المصدر السابق، ج3، ص234.
[3] نفسه: ج4، ص9.
[4] الكسكسو: طعام يتخذه المغاربة من الدقيق، انظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج16، ص446.
[5] العصيدة: دقيق يُلت بالسمن ويُطبخ، انظر شعبان عبد العاطي عطية وآخران: المرجع السابق، ص604.
[6] المقري: المصدر السابق، ص300-302.
[7] المِزر: نبيذ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل نبيذ الذرة، وهو ضرب من الأشربة، انظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج46، ص4191.
[8] الدوشاب: قيل بأنها الدبس، انظر: ابن العماد شهاب الدين الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، ج6، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1986م، ص416.
[9] الأزاذ: كلمة فارسية معربة وهي نوع من التمر، انظر: الزبيدي: المصدر السابق ج9، ص373.

فهذا المأمون بن ذي النون، كانت مجالسه تدار فيها كؤوس الخمر، حيث يذكر ابن بسام أنه كان يوما في أحد مجالسه، و كان عنده من الضيوف " من يرخص في النبيذ، ولا يسوغ له نعيم دونه، فاحتمل حرج ذلك مبالغة في تأنيسهم "[3].

أما المعتمد بن عباد فلم يتورع في شرب الخمرة حتى في أحلك اللحظات، حين كان يستنجد بيوسف بن تاشفين من الخطر المسيحي، كما وُجدت عدّة حالات ضبطت فيها الشرطة والمحتسب بعض العوام حاملين لزجاجات الخمر[4].

ولعلّ الملفت للنظر خلال مدة حكم الطوائف، أن شرب الخمر لم يكن مقتصرا على الرجال دون النساء، حيث نجد البعض من النساء من كنّ يشربن الخمر، فقد أورد ابن زيدون[5](ت462هـ)حادثة له مع ولاّدة[6]حيث أنهما كانا يتناولان الشراب معا، وقد وقع بينهما سوء تفاهم منعهما من الاستمتاع بالشرب واللهو على ما يبدو، وقد ذكر ذلك ابن زيدون بقوله "فبتنا على العتاب في غير اصطحاب ودم المدام مسفوك ومأخذ اللهو متروك"[7].

والأدهى والأمر أن بعض الزهاد في عصر ملوك الطوائف كانوا يشهدون مجالس الخمر دون إنكار لها، فكان من العجيب أن ترى في مجالس الشرب بعض الزهاد، وليس من طباعهم اتخاذ تلك المجالس[8]، وفي ذلك أورد المقري حادثة تشير إلى تواجد الوزير المتزهد أبي الحسن بن الحاج اللورقي، في مجلس شراب للقائد أبي عيسى بن لبون[9]، وقد روى هذه الحادثة، الوزير أبو عامر بن بشتغير فقال فيه: "في يوم سفرت فيه أوجه المسرات، ونامت عنه أعين المضرات، وأظهرت سُقاته غصونا، تحمل بدورا، ويطوف من المُدام بنار مازجت من الماء نورا، وشموس الكاسات تطلع في أكفها كالورد في السوسان، وتغرب بين أقاحي نجوم الثغور فتذبل نرجس الأجفان، وعنده الوزير أبو الحسن بن الحاج اللورقي وهو يومئذ قد بذل الجهد في التحلي بالزهد، فأمر القائد بعض السقاة أن يعرض عليه ذهب كاسه ويُحييه بزبرجد آسه، ويُغازله بطرفه، ويميل عليه بعطفه، ففعل ذلك

---

[1] الداذ : نوع من الشراب، انظر: ابن سيدة: المصدر السابق، ج9، ص415.

[2] محمد عبد الحليم رجب: المرجع السابق، ص296.

[3] ابن بسام: المصدر السابق، ق04، ج1، ص135.

[4] إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص33.

[5] هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، ولد بقرطبة سنة 394هـ في بيت من بيوت الأدب، أبوه من جلة فقهاء قرطبة، كان شاعرا، يُلقب بذي الوزارتين، توفي سنة 462هـ، انظر: عدنان محمد غزال: مصادر دراسة ابن زيدون، د.ط، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004م، ص11-14.

[6] هي ولادة بنت محمد المستكفي بن عبد الرحمان كانت من أعلام زمانها في الأدب، وكان لها مجلس يرتاده أهل الأدب، وكان الوزراء والكتاب يتسابقون على مجالستها، توفيت بعد الخمسمائة، انظر: الكتبي محمد بن شاكر: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ج4 ، د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت، ص251-253.

[7] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج1، ص431.

[8] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص202.

[9] هو أبو عيسى بن لبون بن عبد العزيز كان من جملة أصحاب القادر يحي بن ذي النون، وواليا على مربيطر من أعمال بلنسية، أنظر: ابن الأبّار: الحلة السيراء، ج2، المصدر السابق، ص167-168.

عجلا، فأنشد أبو الحسن مُرتجلا:

ومُهفْهفٍ[1]مزج الفتور[2] بشدة   وأقــــام بيــن تبـــذل وتمـــنّعٍ
يُثنيه من فعل المُدامة والصّبا   سكران سُكر طــــبيعة وتطبّع
أوما إليّ بكأسه فكـــففتُـــــها   ورنا فشفّــــعها بلحظٍ مُطْـــمع
والله لولا أن يُقال هوى الهوى   منه بفضل عـــزيمة وتـــورّع
لأخذت في تلك السبيل بمأخذي   فيما مضى ونزعت فيها منزعي"[3].

إن المُتمعن في هذه الأبيات لا يرى إقرارا من أبي الحسن على ما يرى من منكر فقط، بل إنه يشتهي شُرب الخمر، وهذا ما نلمسه في إيحاءاته من خلال البيتين الأخيرين، غير أن زهده يمنعه من شربها.

وكان لبعض مدمني شرب الخمر أشعارا يصفون بها مدى ولعهم بالخمر، فأبي الأصبغ القلمندر[4] كان موصوفا بمعاقرة الخم، وملازمة الندماء الذين قاسمهم هذا المجون المترف[5]، وكان له في إدمانه شعرا يقول فيه:

جرت مني الخمر مجرى دمي   فجلُ حياتي من سُكرها
ومهما دجت ظلمات الهمـــوم   فتمزيقها بسنا بدْرهـــا[6].

نستنتج من حصاد ما سبق أن موائد الأندلسيين في عصر ملوك الطوائف قد حفلت بأنواع متعددة من الأطعمة الفاخرة، أما مجالسهم فقد عجت هي الأخرى بأنواع الأشربة بما فيها الخم، مما ينم على وجود ترف واضح تمتعت به الأندلس خاصة الطبقة الأرستقراطية زمن ملوك الطوائف.

د- اللباس:

لم يكن الترف في الملبس الذي ساد الأندلس زمن الأمويين ليزول بزوال دولتهم، فمن جاء بعدهم كانوا أشد منهم ترفا، وأكثر بحثا عن الزينة في الملبس[7].

وذلك يبين المستوى الذي بلغته الحضارة المادية، حيث نجد أن قمة الترف في اللباس قد ظهر زمن ملوك الطوائف وهذا راجع لما اشتهرت به مدن الأندلس حينذاك من صناعة أفخر أنواع اللباس.

---

[1] هفْهف الرجل: مشق بدنه، فصار كأنه غصن يمِيدُ ملاحة، انظر: الزبيدي: المصدر السابق،ج24، ص492.
[2] فتر الشراب الجسم، جعله خامدا خاملا، انظر: شعبان عبد العاطي عطية وآخران: المرجع السابق، ص672.
[3] المقري: المصدر السابق، ج3، ص259-260.
[4] كان معاصرا للمظفر بن الأفطس، والذي أمر بقطع لسانه بسب أشعاره، أنظر: ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص369.
[5] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص203.
[6] ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص369.
[7] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص120.

فبطليوس اشتهرت بصناعة نوع من الوبر يجمع بين لين الخز وبريق الذهب، يتساقط من حيوانات بحرية تعرف بأبي قلمون، يكثر وجودها غلى سواحل شنترين[1]، وفي ذلك يقول القزويني: "وتقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر، فيقع منها وبر في لين الخز، لونه لون الذهب، لا يغادر منه شيء، وهو عزيز قليل، فيُجمع ويُنسج منه الثياب، فتتلون في اليوم ألوانا... وتزيد قيمة الثوب ألف دينار لعزته وحسنه "[2].

ويذكر ابن الأبّار أن ابن عمار الوزير الشاعر أهدى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية من ملوك الطوائف ثوبا من صوف البحر يوم نيروز[3]، وكتب مع هذا الثوب بعض أبيات منها:

لما رأيت الناس يحتفلون في إهداء يومك جئته من بابـــــــه

فبعثت نحو الشمس شبه آياتها وكسوت متن البحر بعض ثيابه[4].

وقد رد المعتمد بن عباد التحية بأحسن منها، إذ وجه إلى ابن عمار مكية فضة فيها خمسمائة دينار ذهبا ومعها الأبيات:

هبة أتتك من النضّار ألوفـــها فاغنم جزيل المال من وهّابه

فالبحر يطفح جود مالك ماخرا لما كسوت البحر بعض ثيابه[5].

ولعل صنيع ابن عباد هذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على البحبوحة المالية التي كانت عليها اشبيلية آنذاك، إذ كيف يُعقل أن يصرف ابن عباد على هدية وبيتين من الشعر قالهما ابن عمار خمسمائة دينار من الذهب.

كما اشتهرت المرية بطرز الحرير، إذ وُجد بها ثمانمائة طراز يعمل الحلل والديباج والسقلطون الذي هو نوع من القماش ذي حواشي من الذهب[6].

[1] سحر عبد العزيز سالم: "ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي"، بحوث ندوة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص250-251.

[2] القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر، ص467.

[3] نيروز: هو أحد الأعياد الكبرى بالأندلس، وقد اقترن الاحتفال به بالطبيعة، ووجد اهتماما كبيرا من قبل الأندلسيين، حيث يقع في بداية السنة في أوائل يناير من كل عام، أنظر: حسن أحمد النوش: المرجع السابق، ص232.

[4] ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خريوش، ج1، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989م، ص257.

[5] حسن أحمد النوش: المرجع السابق، ص234.

[6] الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص184.

هذا وقد شهدت قرطبة هي الأخرى انتشار الحرير المطرّز، وأثواب الديباج الآتية من بلاد الأعاجم، وكانت ترتديه الجواري الحسان[1]، ومن بين الشواهد التي تبين لنا مدى التأنق المُفرِط في اللباس زمن ملوك الطوائف ما ذكر عن أحمد ابن برد[2] مولى احمد بن شهيد الذي أنشد شعرا يصف فيه معشوقا أهيف[3] القد[4] ممشوقا بدا في ثوب جميل:

لما بـــــــدا في لازور	ديّ الحرير وقد بــــهر
كبرت من فرط الجمال	وقلت: ما هـــــذا بشر
فأجابني لا تنـــــــكرن	ثوب السماء على القمر[5].

ولعل ما يسترعي الانتباه حقا أن المناصب زمن الطوائف قد أغرت بعض أهل العلم، فنقلتهم من حياة البساطة والزهد في الملابس إلى حياة الدعة والنعيم، فيُذكر أن القاضي محمد المعافري (ت 481هـ/1088م)[6] سُئل يوما قبل أن يتولى القضاء عن حبه للأكل الطيب واللباس اللين والركوب الفاره؟ فقال: والله لا أبالي ما رددت به جوعي، وسترت به عورتي، وحملت به رحلي[7]، لكنه بعد أن تولى منصب القضاء، أصبح يُرى: "داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، وعليه رداء معصفر... وله جمّة مفرقة، ثم يقوم فيخطب ويصلي، وهو في هذا الزي، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس،... ، وأتاه رجل لا يعرف، فلما رأى ما هو فيه من زي الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر، وظهور الكحل، والسواك و أثر الحناء في يديه، توقف وقال: دلوني على القاضي، فقيل له: ها هو، وأشير إليه، فقال: إني رجل غريب، وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلونني على زامر، فصححوا له أنه القاضي، فتقدم إليه واعتذر"[8].

ولعل الشاهد من هذه الرواية أن اللباس الفاخر لم يكن حكرا على الملوك والأمراء فقط، بل كان يرتديه القضاة وأهل العلم، وحتى من كان يعمل زامرا.

---

[1] السقطي: المصدر السابق، ص54.

[2] هو أبو حفص أحمد بن محمد بن برد، الكاتب، كان مليح الشعر، بليغ الكتابة، من أهل بيت أدب ورياسة، وله رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما، وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، وقد توفي بعد عام 440هـ /148م، أنظر: الحميدي: المصدر السابق، ص115.

[3] الأهيف: هو الضامر البطن، أنظر: ابن منظور: المصدر السابق، ج52، ص4737.

[4] القد: القامة، أنظر: نفسه، ج40، ص3543.

[5] ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص208.

[6] هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن بشير المعافري السيرفي، من أهل قرطبة، كان وجلا صالحا طلب الأدب وكتب الحديث وحج بيت الله الحرام، وكتب بيده صحيح مسلم، أنظر: ابن بشكوال: المصدر السابق، ج3، ص812-813.

[7] المقري: المصدر السابق، ج2، ص143-144.

[8] نفسه، ص144.

ولا نعجب بعد هذا كله أن تكون الملابس على اختلاف أنماطها وألوانها ميدانا فسيحا استلهم قرائح الشعراء[1]، ومن ذلك ما قاله الشاعر أبو محمد ابن السيد البطليوسي بممدوحه المُترف الظافر بن ذي النون واصفا ملابسه الفاخرة:

ولم تر عيني مثله ولا ترى أنفس في نفسي وأبهى منظرا

ونسج قرقوب[2] ونسج تُسْتُرا[3] خلتُ الربيع الطلق فيه نوّرا[4].

ولعل أغرب حادثة تبين لنا غاية الترف في اللباس زمن عصر الطوائف هو خروج أهل بلنسية ذات مرة لقتال عدوهم في وقعة بطرنة[5] سنة (456هـ/1064م) بثياب زينة مصنوعة من الحرير[6]، فقال في ذلك أبو إسحاق الطرسوني[7] شعرا منتقدا فيه حالة الترف الطاغية على لباس الجيش الأندلسي:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بهـــا لو لم يكن ببُطرنة ما كانا[8].

وقيل أن العدو من النصارى قد حصل من تلك الواقعة على ألف غفارة[9] من لبوس أهل الرفاهية أيام المباهاة[10].

هـ - الأعراس و الاحتفالات:

لقد انتشرت في عهد الطوائف الاحتفالات والأعراس في بلاد الأندلس، خاصة لدى أهل الملك، وقد تميزت بترف شديد وكانت مجالا للمباهاة[11].

ولا شك أن الحفلات عند الطبقة الخاصة تختلف عن حفلات الطبقات الأخرى، فقد تأنق أفراد الطبق الخاصة في احتفالاتهم وأنفقوا ببذخ، كما كان يتم إغداق الأموال

---

[1] لخميسي بولعراس : المرجع السابق، ص94.

[2] قرقوب: قرية من أعمال مدينة تُسترا، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج1، ص650.

[3] تُسترا: مدينة بخوزيستان، أنظر: نفسه، ص650.

[4] نفسه، ص 650.

[5] بطرنة : هي قرية من عمل بلنسية، أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق03، مج1، ص850.

[6] نفسه، ص850.

[7] هو إبراهيم ابن معلى الطرسوني، شاعر ممتد النفس شديد المرس، قدير على التطويل، اشتهر ذكره بمدح ملك الثغر المقتدر بن هود، وجال على بلاد الأندلس، أنظر: ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص457.

[8] ابن بسام، المصدر السابق، ق03، مج 1، ص850.

[9] الغفارة: جمعها غفائر، كانت في الأصل خرقة تضعها المرأة على رأسها حماية للخمار من دهن الرأس، ولكنها كانت في الأندلس طاقية تطوق الرأس، وتشبه القلنسوة، وهي من ألبسة الرأس وتنسدل على الكتفين، أنظر: سحر عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص255.

[10] ابن بسام: المصدر السابق، ق03، مج 1، ص850.

[11] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص146.

والأعطيات على الشعراء والأدباء لإلقائهم القصائد الشعرية الملائمة، وتفتح أحيانا أبواب القصور للعامة، حيث تمد إليهم الأسمطة لتناول الطعام[1].

ولعل أعظم هذه الاحتفالات وأشهرها ما قام به المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، بمناسبة ختان حفيده يحيى، والتي طبقت شهرتها الأندلس وتجاوزتها إلى غيرها من البلدان، حتى أصبح يضرب بها المثل في الغرب الإسلامي، إذ يقول المقري: " و من أعظم ملوك الطوائف بنو ذي النون ملوك طليطلة في الثغر الجوفي، و كانت لهم دولة كبيرة، وبلغوا في البذخ إلى الغاية، ولهم الإعذار المشهور، الذي يقال له الإعذار النوني، به يضرب المثل عند أهل المغرب، وهو عندهم بمثابة عرس بوران[2] عند أهل المشرق "[3].

ويعطينا ابن بسام ملامح هذا الحفل المدهش فيقول: " احتفل المأمون بن ذي النون في مدعاة إعذار حفيده يحيى، فحشد أمراء البلاد، وجملة الوزراء و الشعراء، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسالا، وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار، وإرغاد موائده ، وتكميل وظائفه، وإذكاء مطابخه، رسوما انتهوا فيها إلى حدة، وشقق عليها جيوب أكياسه، وأمر بالاستكثار من الطهاة للقدور، والإتراع[4] للجفان [5]، والصلة لأيام الطعام، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام والإغراب في صنعة ألوانها مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية، والقران فيها بين الأضداد، والمخالفة بين حار وبارد، وحلو و حامض، و المماثلة بين رائق أشخاصها، وبين ما تودع فيه من نفائس صحافها، والاستكثار من أنواع الحلواء المجبرة للمعد من داء الإتّخام، وتجاوز عسيلها إلى السك، فجاءوا في ذلك كله بأمر كبار، أبيد ت لمطابخه أمم من الأنعام، جمع فيه بين المشاء والطيّار والعوّام، وانتسفت لمخابزه أهراء من الطعام، وأنفقت على مجامره ومعاطره جملة من الأموال الجسام ... "[6].

---

[1] عبد العزيز حاج كولة: الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس من خلا ل فقه النوازل في القرنين 5-6هـ / 11-12م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009م، ص 80.

[2] اشتهرعند المؤرخين عرس الخليفة العباسي المأمون لما تزوج بوران بنت الحسن بن سهل عام 210هـ، وكان هذا العرس كثير البذخ شديد الترف، وكان عرسا لم يُر من قبل، فقد نثر المأمون العباسي الضياع والقرى والجواري والوصفاء والخيل والدواب فكانت تكتب أسماء هذه الأنواع في رقاع صغيرة وتُجعل في بنادق المسك وتنثر على الناس فمن أخذ رقعة توجه بها إلى وكلاء الخليفة وكانت تصرف له ،ثم نثر على الناس الدراهم والدنانير، وكذا المسك وقطع العنبر، انظر: ابن الأثير: المصدر السابق، ج5، ص478 وابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج14، ط1، دار الهجر، مصر، 1998م، ص170-180.

[3] المقري : المصدر السابق، ج1، ص440.

[4] ترع الإناء بمعنى امتلأ ، انظر: الرازي: المصدر السابق، ص32.

[5] الجفنة كالقصعة، انظر: نفسه: ص 45.

[6] ابن بسام: المصدر السابق، ق04 ، مج1، ص128.

أما الحفل الذي أعده المعتضد بن عباد لختان أبنائه ودعا لشهوده علية القوم، فقد أصبح له شهرة أخرى تتصل بالتاريخ السياسي الأندلسي[1]، و فيما يخص احتفالات الملوك الخاصة بهم فقد كانت تقام في مجالس مطلة على الحدائق والأزهار، وكانت تُتداول خلالها الأشعار وأقداح الشراب، وذلك مما كان يفعله المعتمد بن عباد (ت488هـ / 1095م)[2]، والذي كان في أيام أنسه شديد الترف، فقد دخل عليه ابنه ذخر الدولة في دار المزينية، وكان بين يديه فتى يتمايل تمايل القضيب، وهو يلبس من الثياب أجملها وأرقها، وفي يديه كأسا يسقي به المعتمد، فأعجب المعتمد حسن منظر الفتى فقال فيه:

لله ســـاق مهفهف[3] غنـــج[4]   قد قام يسقي فجاء بالعجب

أهدى لنا من لطيف حكمته   في جامد الماء ذائب الذهب[5].

ومن الأوصاف التي وُصف بها مجلس للمعتمد عندما أرسل لطبيب قول الأديب أبي محمد المصري منشدا:

أيها الصاحب الذي فــارقتْ عيني   ونفسي منه السنا والسناء[6]

نحن في المجلس الذي يهب الراحة   والمــسمع الغنى والغنــاء

نتــعاطى التي تنسي مــن الــرقــة   واللذة الهوى والهــــواء

فأْتـــه تــلــف راحـــــة ومُحيـــا   قد أعد لك الحيا والحيـــاء

فلما أتاه وجد المجلس " وقد أتلعت[7] فيه أباريقه أجيادها وأقامت فيه خيل السرور طرادها وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعياد وخلعت عليه الشمس شعاعها، ونشرت فيه الحدائق إيناعها، فأديرت الراح، وتعوطيت الأقداح، وخامر النفوس الإبتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد من إيناسه ما استرق به نفوس جلاسه ... ، فطرب حتى زحف عن مجلسه، وأسرف في تأنسه، وأمر فخلعت عليه خلع لا تصلح إلا للخلفاء، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء، وأمر له بدنانير عددا وملأ بالمواهب يدا "[8].

---

[1] حسن أحمد النوش: المرجع السابق، ص165.
[2] المقري: المصدر السابق، ج4، ص279.
[3] مهفّفة ومهفهفة: أي هيفاء ضامرة البطن، دقيقة الخصر، انظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج24، ص498.
[4] الغُنجُ: في الجارية تكسّر وتدلّل، انظر: نفسه، ج6، ص134.
[5] المقري: المصدر السابق، ج4، ص278.
[6] السّنا: ضوء البرق، والسنا أيضا نبات يُتداوى به، والسّناء من الرفعة، انظر: الرازي: المصدر السابق، ص134.
[7] إناء تلع: ملآن، انظر: الزبيدي: المصدر السابق، ج20، ص398.
[8] المقري: المصدر السابق، ج4، ص281-282.

نخلص عقب هذه الروايات التي نقلها لنا المؤرخين في وصف حفلات ملوك الطوائف بأنها كانـــت في قمة البذخ، فشـــاع فيها مختلف ألوان المرح واللهو من طرب وغناء و شراب.

2- مظاهر الترف العمرانية:

يُعتبر عصر الطوائف من أزهى العصور بعد عصر الخلافة التي ازدهر فيها العمران، حيث بلغ فيه الفنانون الغاية في التفنن الزخرفي، والإسراف الجنوني في مزج المنظر الطبيعي بالبناء وإحداث تأثير جمالي[1].

وقد كان للثراء الفاحش في عصر الطوائف دور كبير في إحداث التنافس العمراني فيما بينهم[2]، فنجد أن ظاهرة التكالب المادي، ومظاهر البذخ قد استمرت على الرغم من الصراعات التي كانت دائرة بين الإمارات الأندلسية، وكانت الطبقة الحاكمة في الجملة ومن يلوذ بها، فضلا عن بقية أعضاء الطبقة الأرستقراطية تتفنن في بناء القصور، وابتداع ألوان الزخارف فيها، وكانت هذه القصور مثوى لفنّي الغناء والرقص وما يدخل بابهما من صور الترف[3].

لقد انصرف جُهد ملوك الطوائف إلى الإنشاءات والتعمير من أجل تخليد ذكراهم، على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية الترفيه ولا حاجة أساسية لها[4].

فهذه القصور المبتدعة الزخارف التي سعى ملوك الطوائف إلى تنميقها على أحسن نسق، كانت تهدف إلى الاستزادة من مظاهر الترف في البناء، لإظهار القوة والعظمة بين ملوك الطوائف الآخرين، كنوع من أنواع التنافس فيما بينهم [5].

ويصف ابن خلكان قصور المعتضد وابنه المعتمد من بعده، مشيرا إلى أنها كانت غاية في الحسن والبهاء، وتوجد على جانب مدينة اشبيلية، ولا ينقص الإنسان فيها شيئا من طعام وشراب ولباس وفراش، حتى أن أصحاب يوسف بن تاشفين حاولوا أن يلفتوا نظره إلى ما فيها من النعمة والإتراف[6]، وكأنهم يطلبون منه مقارنة حياته مع حياة ملوك الطوائف، وأنهم يريدون إبراز مدى المبالغة التي وصل إليها يوسف بن تاشفين من التقشف الذي عُرف به[7].

---

[1] السيد عبد العزيز سالم: " العمارة الإسلامية في الأندلس و تطورها، " مجلة عالم الفكر، المجلد التاسع، ع01، أفريل /ماي / جويلية، 1977م، ص99.
[2] لخميسي بولعراس: المرجع السابق، ص196.
[3] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، المرجع السابق، ص19.
[4] نادر فرج زيارة : المرجع السابق ، ص134.
[5] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، المرجع السابق، ص19
[6] ابن خلكان: المصدر السابق، ج7، ص119.
[7] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص134.

وكان للمعتضد (ت461هـ/1069م) قصرا من قصوره موصوفا بالروعة، يسمى الكازار، وكان رمزا للعظمة والأبهة والفخار، فأصبح اسم الكازار يطلق على جميع القصور الإسلامية في الأندلس فيما بعد[1].

أما قصر طليطلة الذي أقامه المأمون بن ذي النون سنة (455هـ/1063م) فقد تميز بتقنية عالية، حيث أنفقت عليه أموالا طائلة، وبرع المهندسون في بنائه وزخرفته وهندسته، ووصف المقري عملية بنائه بقوله: "تأنق في بنائه وأنفق فيه مالا كثيرا، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها، متصلا ببعضه البعض، فكانت القبة في غلالة[2] من ماء سُكب لا يفتر، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل"[3].

ولعل المبالغة في مجال الهندسة والعمارة كانت محل انتقاد الشعراء، حيث جاء على لسان أحدهم قوله:

أتبني بناء الخـالدين وإنـــما بقاؤك فيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتليه رحيل[4].

وعلى غرار هذا نجد المأمون قد ابتنى في عاصمته طليطلة قصورا أخرى لا تقل بذخا هي الأخرى، حيث اشتهرت بروعتها وفخامتها، وكان منها مجلسه الشهير المسمى "المكرم " والذي كان آية في الروعة والبهاء[5].

ويصف ابن حيان هذا المجلس فيقول:

"وأغرب ما فيه لحظي من بهي زخرفة إزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة، ونصاعة التلوين، قد خرمت في جثمانه صور البهائم، وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار، وأشكال الثمر... وفوق هذا الكتاب الفاصل من هذا المجلس بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيها أشكال حيوان وأطيار، وصور أنعام وأشجار، يذهل الألباب، ويقيد الأبصار، وأرض هذه البحار من أوراق الذهب الإبريز، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير وأبدع تقدير"[6].

[1] نجيب زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995م، ص257.
[2] الغلل: الماء الذي يتغلغل بين الشجر، أنظر: ابن سيدة: المصدر السابق، ج5، ص368.
[3] المقري: المصدر السابق، ج4، ص353.
[4] نفسه، ص353.
[5] أسعد حومد: المرجع السابق، ص110.
[6] نفسه، ص110.

ولعل الذي نستشفه من خلال هذا النص الأخير الذي أورده ابن حيان في وصفه لمجلس المأمون، هو روعة الفن في الهندسة، التي تجاوزت حدود المنطق في الفن إلى فلسفة الفن، حيث كانت هذه الفلسفة معبرة عن حياة الطبقة الأرستقراطية وبحبوحتها وهذا ما تجسد وانعكس على زخارف هذا المجلس.

وأما بنو صمادح أصحاب المرية، فإن قصورهم كانت ملفتة للنظر خاصة فيما يتعلق بتلك الزخرفة الهندسية التي تميزت بها مجالسهم، كالرفوف المزوقة المنقوشة المفروشة بالرخام الأبيض، فقد شيد المعتصم بن صمادح قصورا محكمة البناء غريبة الزخرفة والتنميقات، غرس في البستان أنواعا مختلفة من الأشجار المعروفة والغريبة، كما بنى في وسط هذا البستان بحيرة عظيمة، وقد عُرف هذا البستان بالصمادحية[1].

وكون العذري الجغرافي الوحيد الذي عاصر المعتصم بألمرية فقد زودنا بمشاهداته بتفاصيل هامة عن هذا القصر، فقد جاء في وصفه إياه: "وله في بناء قصبة ألمرية آثار عظيمة جميلة في منعتها وسمو سورها، وإتقان بناء قصورها ، فمنها القصر الكبير المتطلع من جوفيه إلى جبل لَيْهَمْ، وفي قبليه بستان عظيم جدا فيه من جميع الثمار وغريبها ما لا يقدر واصف على أن يصفه مع طول مساحته قرب عرض القصبة، ويليه في قبلته مجلس عظيم أيضا على أبواب مفتحة ودفف على حكاية دفف المشرق، بل أغرب في النقش والإتقان، مفروش ذلك المجلس بالرخام الأبيض سطحه وأزره، ويليه في القبلة منه دار كبيرة قد أتقنت بأنواع التذهيب وغرائبه، تحار فيه الأبصار ...وبنى بخارج مدينة ألمرية بستانا وقصورا متقنة البنيان غريبة الصناعة، وجلب إليها من جميع الثمار الغريبة وغيرها، ففيها من كل شيء غريب مثل الموز الكثير وقصب السكر وأنواع سائر الثمرات... وفي وسطه بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتحة مفروشة بالرخام الأبيض ويسمى ذلك البستان بالصمادحية، وهو قريب من المدينة جدا ... فيه منتزهات لا يُعلم مثلها في جميع المنتزهات".[2]

يُفهم من هذا النص أن قصر الصمادحية كان يضم قصورا ومجالس داخلية بالإضافة إلى بساتين ومنتزهات كانت تمثل في مجملها صورة من صور الترف الذي عاشه بنو صمادح.

[1] محمد أحمد أبو الفضل: المرجع السابق، ص153 .
[2] العذري: المصدر السابق، ص84-85.

وفي سرقسطة التي عرفت ثراءً فاحشا أيام ملوك الطوائف، فقد تم بناء قصر الجعفرية [1] الذي كان يُطلق عليه دار السرور، و الذي يعتبر من بين القصور التي جسدت الفن الأندلسي[2]، و لعل شعر المقتدر بن هود فيه يبين ذلك:

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملـكي خلافـــكما كانت لدي كفاية الطلب[3].

وأما بلنسية فقد عرفت هي الأخرى ابتناء القصور واتخاذ آلات الترف والفخامة حيث شهدت في عصر الطوائف ازدهارا عمرانيا بلغ الغاية [4]، ومن أمثلة القصور التي أقامها ملوك بلنسية في زمن الطوائف قصر المنصور عبد العزيز بن أبي عامر الذي شيده في منيته الموسومة باسمه وعرفت بمنية المنصور أو منية ابن عبد العزيز في شمالي بلنسية [5].

وكان قصر بني زيـري بغرناطة غاية في الجمال والأبهة، ليس ببلاد الإســـلام والنصارى مثله[6]، وقد استحسنه ابن تاشفين وأعجب به عندما حل بغرناطة، فطاف بكل مكان منه وأمر بحفظه[7]، وفي رسالة للوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن مسلم الداني كتبها بعد أن أرسله إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري في مهمة رسمية إلى بعض ملوك الطوائف، يصف فيها ما شاهده في قصر ملك غرناطة باديس بن حبوس من حياة ترف ورخاء[8].

وكان لولاة المدن زمن الطوائف نصيب من الترف في منازلهم، التي كانوا يتخذونها كمقرات لحكمهم داخل المدن التي يحكمونها، ويدل على ذلك أبيات من الشعر أنشدها الوزير أبو بكر بن عمار عندما وجهه المعتمد (ت488هـ /1095م) إلى شلب[9] ليتفقد أحوالها، فقد كان أبو بكر واليا عليها في عهد أبيه المعتضد، وقد أعلن أبو بكر تشوقه إلى مسكنه، والمعروف بقصر الشراجب في شلب بقوله:

---

[1] الجعفرية: نسبة إلى أحمد بن المقتدر بالله، المكنى أبا جعفر، أنظر: مورينو جوميث: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز سالم، د.ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د . ت، ص262.

[2] لخميسي بولعراس: المرجع السابق، ص196-197.

[3] المقري: المصدر السابق، ج1، ص442.

[4] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص211.

[5] نفسه ص211.

[6] المقري، المصدر السابق، ج1، ص196.

[7] ابن الخطيب: المصدر السابق، ج4، ص353.

[8] ابن بسام: المصدر السابق، ق03، مج1، ص427-448.

[9] شلب: بكسر أوله وسكون ثانيه و آخره باء موحدة هكذا أهل الأندلس يتلفظون بها، وقيل بفتح الشين، وهي مدينة بغربي الأندلس، و بينها و بين باجة ثلاثة أيام، و هي غربي قرطبة، أنظر: الحموي: المصدر السابق، ج3، ص357.

ألا حي أوطانــي بشــلب أبا بــكـــــر   وسلهن هل عهد الوصال كما أدري

وسلم على قصر الشراجب عن فتى   له أبدا شـــوق إلــى ذلك القــصــر[1]

وقد زاد الإقبال على فن البناء و التعمير بوجه خاص في عصر ملوك الطوائف، وليس أدل على ذلك من الإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي أبداه مبارك و مظفر موليا بني عامر بالعمارة تقليدا للملوك بالتناهي في عليات الأمور، وقد قلدهما في هذا الاتجاه أصحابهما ووزرائهما وكتابهما، فاقتدوا بهما في تفخيم البناء وإقامة المنتزهات والجنان، وأنفقوا في ذلك أموالا طائلة حتى أن بعضهم كان ينفق على داره مائة ألف دينار وأقل منها وفوقها، وكانوا يستخدمون في عمليـــة البناء أجود أنواع الأخشاب ورفيع العُمـــد ونفيس المرمر مجلوبا من مناطقه المشهورة بذلك[2].

ويذكر ابن بسام في وصف إحدى الدور التي كان يملكها شخص يدعى مؤمل القشتيلي من أعوان الفتيين مبـــارك ومظفر صاحبا بلنسية أنها كانت تفوق في ســـرورها واكتمال النعمة فيها قصر الإمارة بقرطبة، وفي ذلك يقول:

" بلغني أنه دُخل دار رجل من أصحابهما يُعرف بمؤمل القشتالي ووقع البصر بها من سروها واكتمال النعمة فيها ما لم يشاهد مثله قط في قصر الإمارة بالحضرة العظمى قرطبة، وأخبر المحدّث أنه رأى في فرش مجلسه مطارح من صلب الفنك الرفيع مطرزة كما تدور بسقلاطوني بغدادي، وأنه كان يقابل ذلك المجلس شكل ناعورة مصوغة من خالص اللجين من أغرب صنعة، يحركها ماء جدول يخترق الدار أبدع حركة، إلى أشياء تطابق هذا السّرْوَ من جودة الآلــة والآنية والمـــائدة وجمال الخدم ورقة الأســـمعة[3]، وفخامة الهيئة ما لا شيء فوقها "[4].

يتضح لنا من خلال هذا النص أن دُور بلنسية كواحدة من مدن ملوك الطوائف قد بلغت درجة عالية من الفخامة والأبهة في عصر تنافس فيه ذوو الثراء على إبراز حجم ثروتهم و فخامتهم وكذا إظهار ترفهم، فابتنوا دورا تضاهي في اتساعها، وتعدد مرافقها وما تحويه من فاخر الأمتعة والرياش قصور الأمراء[5].

---

[1] ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص133.
[2] ابن بسام: المصدر السابق، ق03، مج1، ص17.
[3] الأسمعة: مجالس الغناء، أنظر: نفسه، ص18 .
[4] نفسه ، ص18.
[5] كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص212.

لكن ما فائدة كل ذلك، لقد سقطت كل المدن و القصور في يد النصارى ؟! ولو عمد ملوك الطوائف إلى الاكتفاء بما يليق و منصبهم و إنفاق باقي أموال البناء على أمر الجهاد وصناعة عظماء الرجال لكان أولى و أجدى .

الفصل الرابع: انعكاسات حياة الترف والبذخ على المجتمع الأندلسي

أولا: على عهدي الخلافة والدولة العامرية (300-399هـ)

1- الانعكاسات السياسية:

أ- معارضة الفقهاء والعلماء

ب- انقسام جند الأندلس وصراعهم على السلطان

ج- تحكم الجواري في دواليب الحكم

2- الانعكاسات الاقتصادية

ثانيا: على عهد ملوك الطوائف (400-484هـ)

1- الانعكاسات السياسية والعسكرية:

أ- الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف

ب- الاستعانة بالنصارى والاحتماء بهم

ج- انتشار الفساد بين ملوك الطوائف وطبقة الوزراء والموظفين

د- تدخل الجواري في أمور السياسة

هـ- إغارة النصارى وتوالي الهزائم العسكرية

2- الانعكاسات الاقتصادية:

- كثرة المكوس والضرائب

3- الانعكاسات الاجتماعية:

- تفشي الإباحية والرذائل الخلقية
- شيوع الآفات الاجتماعية

أولا: على عهدي الخلافة والدولة العامرية (300-399هـ)

1. الانعكاسات السياسية:

أ- معارضة الفقهاء والعلماء:

لقد قامت معارضة كبيرة ضد سياسة الناصر التي قامت على إهدار المال الكثير في سبيل التأنق في العمران، تحمل وجهة النظر الإسلامية في هذا التوجه المادي الذي يُعلي من أسهم حضارة الحجارة وقهر الإنسان في سبيل مجد شخصي زائل، وينفق وقت الأمة وأموالها في هذه الأشكال والرسوم، وقد تزعم هذه المعارضة القاضي المنذر بن سعيد البلوطي[1].

وكان الزهد بدوره يدعو إلى الحد من التباهي والسرف، فقامت فئة من الفقهاء والزهاد تندب ما آل إليه أمر المسلمين، وترى في هذا الإسراف نوعا من الانصراف عن حياة الجد والجهاد وتنظر إلى هذا النعيم نظرتها إلى الرذيلة والإثم فقال الفقيه ابن العسال:

لولا ذنوب المسلمين وإنهـــم ركبوا الكبائر مالـــهن خـــفاء
ما كان يُنصر للنصارى فارس أبدا عليهم فالـــــذنوب الـــداء
فشرارهم لا يختفون بشرّهـــم وصلاح منتحلي الصلاح رياء[2].

وكما نهى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن التطاول في البنيان، واستبدل عمر بن عبد العزيز سلاسل الذهب والفضة في جامع بني أمية سلاسل الحديد، فقد وجدت الأندلس في أشخاص الفقهاء من يدعو إلى الحد من التطاول في البنيان والسرف في الزينة والزخرف[3].

وكان من أقوال المنذر البلوطي في رد فلسفة الخليفة الناصر هذا الشعر الذي يقول فيه:

ياباني الزهراء مستغرقا أوقاته فيها أما تمـــهل

لله ما أحسنها رونقـــــا لو لم تكن زهرتها تذبل[4].

وقد انهمك الناصر في الإسراف على الزهراء حتى تأخر عن حضور صلاة الجماعة - في يوم الجمعة - ثلاث جمع متواليات[5]، فحفظها له البلوطي، فلم احتفل بافتتاحها خطب

---

[1] عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، المرجع السابق، ص10.
[2] محمد سعيد الدغلي: المرجع السابق، ص57.
[3] نفسه، ص57.
[4] عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص10-11.
[5] طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ط1، مطابع المجامع الدولية، الكويت، 2005م، ص166.

البلوطي في مسجدها[1]، وكان مما أورده في مجال مقاومة هذا الاتجاه قول الله تعالى: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[2]، ثم مضى في ذم الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد[3]، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[4]، وراح يحذر وينذر ويحاسب حتى ادّكر من حضر من الناس وخشعوا، وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على تفريطه[5].

ولقد صدق القاضي منذر - رحمه الله تعالى- فيما قال، فإنها ذبلت بعد ذلك في الفتنة، وقُلب ما كان فيها من منحة محنة، وذلك عندما وُلي الحجابة عبد الرحمان بن منصور بن أبي عامر الملقب بشنجول، وتصرف في الدولة مثلما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور فأساء التدبير[6]، فلعبت بمدينة الزهراء أيدي الخراب في أيام الفتن التي قامت في أواخر أيام الدولة الأموية[7]، حيث قام البربر بهدمها في (23من ربيع الأول سنة 401هـ / 04 نوفمبر 1010م)وذبحوا حاميتها، ويغلب على الظن في أسباب تخريب قصور الزهراء أن الإسلام يستهجن إضفاء معنى الأزلية على البناء فالدوام لله وحده، وبناء قصور لها صفة الخلود أمر خارج عن الدين الإسلامي، وكان رجال الدين والفقه يترصدون أخطاء الملوك حتى يوجهوا لهم الانتقاد [8]، وقد دارت الأيام دورتها، وتحقق ما ذهب إليه المنذر بن سعيد، إذ لم تُعمّر مدينة الزهراء أكثر من ستين عاما، ثم لعبت بها أيدي الخراب، وصارت تنمحي شيئا فشيئا حتى زالت، ولم يُعرف أثرها إلا بعد الحفريات الحديثة[9].

وهكذا يتبن لنا كيف جرّت وألّبت سياسة الناصر القائمة على الإعلاء من شأن الحضارة المادية عليه طبقات المجتمع الأندلسي خاصة طبقة الفقهاء الذين كانوا رافضين لها، والذين تبيّن صدقهم فيما ذهبوا إليه.

---

[1] عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص11.
[2] سورة الشعراء: الآيات 128-136.
[3] طارق السويدان: المرجع السابق، ص166.
[4] سورة التوبة: الآية 109.
[5] طارق السويدان: المرجع السابق، ص166.
[6] المقري: المصدر السابق، ج1، ص576.
[7] عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ص11.
[8] السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م، ص52.
[9] أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ص207 .

ب- انقسام جند الأندلس وصراعهم على السلطان:

لقد أدت سياسة الناصر التي اعتمدت على الاستكثار من الجند الصقالبة كمظهر من مظاهر الثراء والترف، وتقليدهم مسؤوليات كبيرة في الدولة آنذاك كما رأينا سابقا، وإقصائه للعناصر الباقية من العرب والبربر إلى وجود تذمر كبير من قبل هذه العناصر، إلا أن هذا التذمر لم يطفو إلى السطح بسبب إحكام الناصر سيطرته على الأوضاع الداخلية ،لكن بمجرد أن انقضت فترة حكم الناصر وولده المستنصر من بعده (300-366هـ)وقدوم المنصور بن أبي عامر الذي اعتمد كثيرا على البربر والصقالبة في تكوين جيشه عكس الناصر وولده، نجد أن البربر والصقالبة قد أصبحوا قوة لا يُستهان بها يصعب القضاء عليها.

وأصبحت هذه العناصر تترقب فرصة ضعف أو اضطراب حتى تعمل لمصلحتها الخاصة، وتصبح لها السيادة على البلاد، وفيما يبدو لم تكن هذه العناصر مخلصة تماما للأمويين أو العامريين فكثيرا ما تآمر الصقالبة ضد بني أمية في عصر الخلافة، كما تآمروا أيضا ضد بني عامر وانتهزوا فرصة موت المنصور بن أبي عامر وقال قائلهم: "هل كتب علينا أن نبقى في حجر آل بني عامر الدهر الداهر؟" وكان واضحا أن الفتى الصقلبي سبق الجميع في التخلي عن عبد الرحمان الشنجول بن أبي عامر عندما ثار ضده بني أمية عام 399هـ[1] عن طريق قائدهم محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموي الملقب بالمهدي (399-400هـ)[2].

أما البربر فقد كانوا أسرع من غيرهم في التخلي عن عبد الرحمان شنجول، وقال له زعيمهم محمد بن يعلى الزناتي "إياك أن تغتر، فليس والله يقاتل عنك أحد من زناتة، والناس تبع لهم"، وأدى ذلك إلى أن ظفر به محمد المهدي الأموي وقتله وقضى على دولة بني عامر، وكان تخلي البربر عن العامريين بهذا الشكل من الأشياء الملفتة للنظر، فالعامريون هم الذين استقدموا البربر من المغرب الأقصى و شجعوهم على النزوح إلى الأندلس ورفعوا من شأنهم حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس وأظهرهم نعمة وأعلاهم منزلة، وأصبحوا قوة رئيسية تعتمد عليها الدولة في حروبها وبقائها، فما الذي أغرى هؤلاء البربر بالتخلي عن بني عامر ؟[3].

يبدو أن البربر كانوا مثل الصقالبة غير مخلصين تماما لبني عامر، فصنهاجة كانت من ألد أعداء بني أمية وبني عامر معا، ولم تلجأ إلى الأندلس إلا بسبب الصراع بين زعمائها على أرض المغرب الأقصى، وكانت تضمر الحقد للمنصور بن أبي عامر، لأنه

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص183.
[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص50.
[3] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص97-98.

أخذهم بالشدّة وطبّق أحكام الشرع على من يستحق العقوبة منهم، أما زناتة فكان ولائها للعامريين لكن سياسة بني عامر في قتل بعض زعمائهم قللت من إخلاصهم له، هذا بالإضافة إلى أن البربر جند مرتزقة، وهذا النوع من الجند لا يدافعون عن وطن ينتمون إليه، بل يدافعون- إذا دافعوا- عن حاكم يضمن لهم مصالحهم وأرزاقهم، فإذا رأوا أن مصلحتهم مع شخص آخر انضموا إليه دون تردد[1].

وهذا ما حدث فعلا، فعندما رأوا عبد الرحمان شنجول يتخبط في سياسته، ورأوا قيام أهل قرطبة مع المهدي ضده، تحول ولائهم عنه وأسلموه إلى حتفه خوفا على أموالهم وأهليهم الذين يعيشون في قرطبة وبذلك تم القضاء على دولة بني عام، وانقسم جند الأندلس إلى حزبين متصارعين على السلطان، الأندلسيون وعلى رأسهم الصقالبة يدعون لمحمد المهدي والبربر يدعون ويؤيدون سليمان المستعين ابن عم محمد المهدي، وحاول كل فريق أن يصل إلى السلطة مستترا وراء أحد الخلفاء من بني أمية[2].

بدأت نذر الكارثة التي حاقت بالأندلس الإسلامية تلوح في الأفق منذ ذلك الحين، فقد قرر كل فريق أن يستعين على خصمه بنصارى الشمال، ومهدوا الطريق لهم لكي يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور، وأن يتعرفوا على مواطن الضعف وأن ينفذوا سياستهم في ضرب كل فريق بالآخر، وأن يستولوا في النهاية على المعاقل والحصون التي كان الناصر والمنصور قد قضيا حياتهما في بنائها وشحنها بالسلاح والرجال، وجعلاها درعا يذود عن البلاد ومنطلق لهجماتهما ضد نصارى الشمال، كل ذلك حدث ولم يمض على آخر غزوة للمسلمين في أرض النصارى أكثر من عام واحد[3].

أدرك البربر منذ البداية أنهم قلة قليلة العدد بالنسبة للأندلسيين فاتصلوا بالكونت شانجة بن غريسة بن فرنان أمير قشتالة[4]، والذي كان يعد أقوى أمراء الشمال النصراني في ذلك الوقت، وطلبوا منه محالفتهم ضد المهدي وضد حليفه واضح الصقلبي صاحب مدينة سالم الذي كان قد حرّض أهالي الثغور على مقاطعة البربر اقتصاديا حتى اضطروا إلى أكل حشائش الأرض[5].

وكانت رسل المهدي وواضح الصقلبي تطالب في نفس الوقت محالفة شانجة ضد البربر، على أن يعطياه ما أحب من مدن الثغر وحصونه، وأرسلا إليه هدية قيّمة، فيها من

---

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص183-184.
[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص67.
[3] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص264.
[4] قشتالة: عمل من الأعمال الأندلسية، قاعدته قشتالة، يُسمى العمل بها وقالوا: ما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهة الجنوب يُسمى اشبانيا، وما خلف الجبل من الجهة الشمالية يُسمى قشتالة، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص161.
[5] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص82-86.

التحف والطرائف ما لا يحصى، لكن شانجة تحالف مع البربر حتى يزيد من شقة الخلاف بين هذين الفريقين من المسلمين، وأرسل لهم على الفور ألف عربة محملة بالدقيق والعقاقير والأطعمة وغير ذلك من المؤن الضرورية حتى الحبال والأوتاد اللازمة لدوابهم، فقوى البربر وانتعشت روحهم المعنوية[1].

وقام سليمان وجنوده من البربر تؤازرهم قوات شانجة أمير قشتالة وزحفوا حتى وصلوا مدينة سالم، وهزموا واضح في ذي الحجة عام 399هـ/1009م، وحازوا ما كان في معسكره من مال وسلاح، وزحفوا إلى قرطبة وهزموا جند المهدي في موقعة قنتيش في ربيع الأول عام 400هـ /1009م، ووضع البربر والنصارى السيف في رقاب أهل قرطبة فأبادوا منهم ما بين عشرين إلى ثلاثين ألف رجل، كان من بينهم عدد كبير من العلماء وأئمة المساجد، مما أوقع البلاد في أتون حرب أهلية جرّت عليها الخراب والدمار، وهرب المهدي وواضح إلى طليطلة، وبويع سليمان المستعين في قرطبة[2].

من هنا يتضح لنا مبلغ ما ارتكبه بني أمية وبنو عامر من خطأ عندما اعتمدوا اعتمادا كليا على تلك العناصر الأجنبية، وأهملوا العنصر العربي وأهل البلاد الأصليين من المولدين وغيرهم، حيث كانت تلك العناصر تلتزم الهدوء والطاعة طالما كان الحاكم قويا، وعند الضعف أو في فترات الاضطراب كانت تقوم بدورها المخرب وتستبد بالبلاد، مما هيأ الفرصة للاستعانة بملوك النصارى كي يتدخلوا في شؤون الأندلس الداخلية ويبسطوا سلطانهم عليها[3].

وخلاصة القول أن الأمجاد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلقي حجابا كثيفا عن تردي الأوضاع الداخلية بسبب تقريب فئة والإكثار منها على حساب أخرى، إذ بمجرد أن تصدع صرح الخلافة الأموية وكذا انقضاء الدولة العامرية ظهرت بوادر الفتنة البربرية.

ج- تحكم الجواري في دواليب الحكم :

ازداد عدد الجواري في المجتمع الأندلسي نتيجة لكثرة الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية في أسبانيا وبلاد الفرنجة، وكذلك عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى في أوربا وغيرها[4].

---

[1] نفسه، ج3، ص86.
[2] نفسه، ج3، ص87-89.
[3] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص184.
[4] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص319.

وامتلأت بيوت المسلمين في الأندلس بالأسبانيات وغيرهن، حيث تزوجن الكثير من العرب والبربر، وكان لبعضهن تأثير كبير على أزواجهن وأولادهن من ناحية العادات والتقاليد واللغة وغير ذلك[1].

كما كان لبعض الجواري وأمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفاء[2]، مثل ما كانت تقوم به جارية الخليفة الناصر "مرجان" من حيل ضد السيدة فاطمة القرشية بنت أخي جده المنذر بن محمد الأمير، وكان الناصر يقول لجاريته مرجان هذه: "فاقتاديني إلى قصرك فإني طوع يمينك وحبيس هواك " وكان ذلك على إثر الحيلة التي دبرتها لصرفه عن ابنة عمه فاطمة القرشية، ويقول ابن حيان عن هذه الجارية: "فتقدمت إليه جميع نسوانه حتى كانت كرائمه وحظاياه لا يصلن إلى مطالبهن ورغباتهن من الناصر لدين الله إلا بشفاعة مرجان لهن وتوسلهن بها لديه للطف منزلتها وغلبتها على قلبه "[3]، كما خضع الناصر لطلب حظيته رسيس المقربة منه حيث جعلها تخرج معه في مركبه وهي تلبس قلنسوة و تتقلد سيفا، وتشق قرطبة على هذا الحال حتى بلغت معه الزهراء[4].

أما صبح البشكنسية[5]حظية الخليفة المستنصر، وأم ولده هشام فقد كان لها نفوذ كبير في حياة زوجها وبعد مماته عندما ولّي ابنه الخلافة وهو غلام صغير في العاشرة من عمره سنة 366هـ حيث اتخذت من محمد بن أبي عامر الذي لُقّب بالمنصور كاتبا لها ووكيلا للنظر في أموالها وضياعها، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه: "إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يُتحفهم به "[6]، وخاصة بعد أن وُلي دار السكة فكان يُنفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه، فيُروى أنه صاغ لها تمثالا من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيرا[7].

ونجحت صبح بعد أن تبين لها أنّ الخليفة على وشك الموت في عقد مجلس يضم أشراف الأندلس وأعيانها، وفي ذلك الاجتماع قرأ الخليفة على الحاضرين صيغة إقرار بقبولهم تولي ابنه هشام الخلافة من بعده، وأبعد بذلك المغيرة شقيق الحكم عن العرش،

[1] نفسه: ص320.
[2] نفسه: ص320.
[3] أنور محمود الزناتي: المرجع السابق، ص36.
[4] ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج2، ص76.
[5] كانت جارية للحكم المستنصر، وهي أم هشام المؤيد، من ربات النفوذ والسلطان والإدارة والسياسة، انظر: عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج2، ص323.
[6] حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص327-328.
[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص252.

وكان شابا في السادسة والعشرين من عمره، ونجح ابن أبي عامر في نشر الدعوة لهشام بين وجوه الأندلس، وكافأه الخليفة بتعيينه مفتشا عاما للقصر السلطاني[1].

مات الخليفة وهو في الرابعة والستين من عمره، تاركا وراءه ابنه هشام تحت وصاية أمه صبح، وحين اتصل بعلمها نبأ تآمر أتباع المغيرة على الخليفة الجديد وأهله وأعوان أبيه، دبّرت مؤامرة قضت بها على حياة المغيرة، وخلا الجو لها بعد ذلك، لأن ابنها كان لا يزال طفلا لا يستطيع إدارة شؤون البلاد، وظهرت صبح على مسرح الأحداث بمظهر الوصية والملكة الفعلية ومدبرة السياسة الأندلسية[2].

فأرست مجالس الحكم، وأشرفت على تدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد، يُعاونها الحاجب جعفر المصحفي والكاتب محمد بن أبي عام المنصور[3].

وقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة، بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه، واستبد بالأمور في الدولة حتى استطاع أن يُؤسس ما اصطلح عليه اسم الدولة العامرية التي كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية[4]، وما كان له أن يصل إلى هذا لو لم تتدخل صبح جارية المستنصر بالله، والتي وجهت دفة الحكم إليه.

وكان لجارية المنصور بن أبي عامر الذلفاء وأم ولده عبد الملك دور كبير في حياكة خيوط المؤامرة التي دُبّرت لعبد الرحمان شنجول بن المنصور، حيث كانت تعتقد اعتقادا جازما بأن ولدها قد توفي غيلة بالسم، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمان، فكانت تتوق إلى الانتقام لذلك[5].

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم كثيرة المال والوجاهة، فبالرغم ما أسبغه عبد الرحمان عليها وعلى أسرة ولدها و أخيه عبد الملك من ضروب الرعاية والإكرام، تسعى دائما للإيقاع به ، فلما شعرت أن الجو قد تهيأ للسعي، مما ثار حول تصرفات عبد الرحمان من ضروب الإنكار والسخط، اتصلت بوجوه بني أمية، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم، والانتقام من بني عامر[6]، وبدأت تعمل في الخفاء ضده وتحرض كل الطاقات في هذا السبيل، فظلت تغري الثوار الطامعين في الحكم بكل ما أوتيت من مكانة ومال، وقد كان خادمها "بشرى" الوسيط بينها وبين قادة المروانيين، وبذل هذا الفتى جهودا

[1] يحي وهيب الجبوري: النساء الحاكمات من الجواري والملكات، ط1 ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م، ص84-85.
[2] نفسه، ص85.
[3] نفسه، ص84.
[4] حسين يوسف دويدار، المرجع السابق، ص328.
[5] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية، المرجع السابق، ص630.
[6] نفسه، ص630.

عظيمة لإقناع المروانيين بصدق سيدته تجاههم وأنها حقيقة تسعى ليسترجعوا ملكهم من العامريين، وتم الاتفاق أخيرا على البحث على هذا الرجل الأموي الذي يصلح لهذه المهمة، ووقع الاختيار في النهاية على محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر[1].

وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه عبد الرحمان شنجول يعتقد أن الأمور قد استتبت لمصلحته كانت مؤامرة أموية تحاك ضده في الخفاء لنسف مشاريعه الواهية، وكان توقيت هذه المؤامرة متوافقا مع خروج عبد الرحمان من عاصمته الزاهرة، ومعه عدد غير قليل من الجند سنة 399هـ / 1009م فما كاد يبلغ طليطلة حتى كان الثائر الأموي ينقض على قرطبة في عتمة الليل، وسرعان ما وضع يده على مؤسسة الحكم، وامتلك ناصية الأمور فيها، حتى القصر الخلافي المنسي اقتحمه ليزيل قريبه الخليفة الأسمى ويجلس مكانه[2]، كما انقض على مدينة الزاهرة مقر الأسرة العامرية، فاجتث جذور هذه الأسرة وقضى على آثارها[3]، وقد تلقب الخليفة الجديد بالمهدي[4].

وصل الخليفة الأموي محمد المهدي إلى الحكم فوق ركام من الجماجم وأشلاء الضحايا، وكثير من العرق والدماء، وهكذا انتقمت هذه الجارية لنفسها وثأرت لابنها من الدولة كلها، ولولا تدبير هذه الجارية لما تسنى لهذا الأمير البائس أن يصعد للحكم[5].

يُستنتج مما سبق أن الجواري اللواتي كن يعشن داخل القصور كانت لهن اليد الطولى في حياكة عدة مؤامرات قلبت موازين الحكم داخل الدولة في الأندلس.

2- الانعكاسات الاقتصادية:

بالرغم من ثراء الدولة الإسلامية في الأندلس وكثرة وارداتها خلال القرن الرابع الهجري، إلا أننا نجدها قد عصفت بها عدة مجاعات وحل بها قحط شديد خاصة في فترة الخلافة (300-366هـ)، ففي عام (302-303هـ) نقصت الأقوات وارتفعت الأسعار، وبلغ قفيز القمح في قرطبة ثلاثة دنانير، وبلغت الشدة بالناس مبلغا عظيما، وانتشر الوباء مع القحط، وكثر الموت، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء، وقد قام الخليفة الناصر ببذل الأموال وتوزيع المؤن للمجتمع، وشاركه في الأمر الكثير من رجالات الدولة، فكان لمجهودهم أثر كبير في التخفيف من آثار هذه المحنة[6]، وفي عام 317هـ حلت مجاعة جديدة في الأندلس، فغلت الأسعار على نحو ما حدث في عام 303هـ، فخرجت كتب الخليفة

---

[1] علي حسين الشطشاط: المرجع السابق، ص83.
[2] المقري: المصدر السابق، ج1 ، ص426.
[3] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص97.
[4] المقري: المصدر السابق، ج1، ص426.
[5] علي حسين الشطشاط: المرجع السابق، ص84.
[6] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص166.

الناصر إلى جميع العمال على الكور، بالأمر بصلاة الاستسقاء[1]، وفي عام 324هـ وقع محل جديد بالأندلس فاحتبس المطر وجفت الزروع، وبذل الناصر الأموال لمعالجة الأزمة[2]، وعاد المحل والقحط بالأندلس عام (329هـ/941م) فعم الجفاف البلاد، وأصيب النظام الاقتصادي وبخاصة التجاري في قرطبة بهبوط كبير[3].

وفي عهد الحكم المستنصر(350-366هـ) وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين في سائر أرباض قرطبة والزهراء ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم[4]، يحدث كل هذا في الوقت الذي نرى فيه كبار رجالات الدولة يتفننون في البناء بسبب ثرائهم الفاحش، ففي الوقت الذي غلت فيه الأسعار، وقلة أجور العمال البسطاء حيث تذكر الروايات أن أجور العمال الذين كانوا يشتغلون في بناء الزهراء كانت تتراوح بين الدرهم والنصف وثلاثة دراهم تبعا لمقدرتهم الحرفية، كان راتب أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر خمسمائة دينار في الشهر، وقد رفعه الخليفة إلى ألف دينار فيما بعد، هذا مع العلم أن الدينار كان يعادل على العموم عشرة دراهم[5].

وكان أحمد بن شهيد أول من ابتدع تقديم الهدايا إلى الخليفة، وكان من بين الهدايا: خمسمائة ألف مثقال من الذهب، ومائتا أوقية من المسك والعنبر، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب، ومائة فرس مسرجة، وعشرون بغلا عالية الركاب، وعشرون جارية، وغيرها، وذلك في عام 327هـ[6]، كما أهدى الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفي هديته الباذخة إلى الخليفة الحكم المستنصر مقلدا بها هدية ابن شهيد للخليفة الناصر، وكانت محتويات هذه الهدية مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملة العدة والسلاح، وثلاثمائة وعشرون درعا مختلفة الأجناس...، وثلاثمائة خوذة كذلك، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس[7].

وهذا مما يدل على مدى ثراء الوزراء والحجاب وكبار رجالات الدولة، ولعل في هذا إشارة كافية للبون الشاسع بين مستوى حياة الطبقة الأرستقراطية ومستوى حياة الطبقة العامة، التي تتأثر بجميع الأزمات التي تجتاح البلاد، فهي أولى الطبقات التي تفتك بها المجاعات ويهلكها القحط.

---

[1] نفسه، ص199.
[2] خليل إبراهيم السامرائي وآخران: المرجع السابق، ص464.
[3] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية، المرجع السابق، ص425.
[4] ابن عذارى: المصدر السابق، ج2، ص236.
[5] صلاح خالص، المرجع السابق، ص55- 58.
[6] خليل إبراهيم السامرائي وآخران: المرجع السابق، ص465.
[7] محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية، المرجع السابق، ص511-512.

ثانيا: على عهد ملوك الطوائف(400-484هـ)

1- الانعكاسات السياسية والعسكرية:

أ- الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف:

كان لرغبة ملوك الطوائف في البحث عن الغنى والأموال طمعا في حياة مترفة وباذخة، وكذا تمسكهم بمقاليد الحكم والسلطة سببا في سفك كثير من الدماء وتأجيج الصراعات بين بعضهم البعض، وحتى داخل السلطة الواحدة.

وقد اشتد الصراع في عهد ملوك الطوائف بين المدن الإسلامية، وطغت الفتنة في كل أنحاء الأندلس من الشرق إلى الغرب مرورا بالوسط، حتى كاد يجرف أمامه جميع الممالك الإسلامية في كل الجهات[1]، وذلك بالرغم من بعض الدعوات المخلصة التي حاولت جمع الأندلس تحت حكم واحد، والتي قادها بعض الدعاة من العلماء، وبعض الحكام كأبي الوليد الباجي[2] بعد عام(440هـ/1048م) بتأييد من المتوكل بن الأفطس[3]، وأبو الحزم جهور من قرطبة، وابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1064م)، والشاعر أبو إسحاق الألبيري (ت460هـ/1067م)، وغيرهم[4]، إلا أن هذه النداءات لم تلق استجابة من طرف ملوك الطوائف، ولم يكونوا متعاطفين معها لأن معناها التنازل عما هم فيه من الترف والنعيم والتسليم لخليفة واحد لا يرضونه ولا يريدون حكمه[5]، وفي هذا دليل واضح على تشبثهم بكراسيهم، واستغراقهم في ملذاتهم، تفضيلا منهم لحياة الدعة والركون، على حياة الوحدة والجهاد.

ومن بين الصراعات التي انتشرت بين ملوك الطوائف وأخذت من وقتهم الكثير في سبيل إرضاء شهواتهم وملذاتهم نذكر:

---

[1] رينهرت دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في التاريخ الإسلامي، ترجمة: كامل كيلاني، ط1، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1933م، ص170.

[2] هو الإمام العلامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي صاحب التصنيف، ولد في سنة ثلاث وأربعمائة هجرية، أصله من مدينة، ونسب إلى باجة بسبب رحيل جده إليها توفي سنة أربعمائة وأربع وسبعين هجرية، انظر: الذهبي: المصدر السابق، ج18، ص535-536.

[3] هو عمر بن المظفر بن الأفطس ملك بطليوس، من قبيلة مكناسة البربرية، ورث الملك ببطليوس من أبيه، وكان المتوكل بالله كالمعتمد بأشبيليه ، وانتهى أمره بوقوعه بيد المرابطين، انظر: الكتبي: المصدر السابق، ج3، ص155.

[4] عبد الرحمان علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ / 711-1492م)، ط2، دار القلم، دمشق، 1981م، ص336 .

[5] محمد موسى الشريف: نماذج تاريخية معاصرة من مآسي الافتراق وأثر ذلك على الأمة، ط2، دار الأندلس الخضراء، بيروت، 2012م، ص51.

- **الصراع بين أشبيلية وبطليوس[1]:**

اتسمت الحروب والنزاعات بين هاتين المملكتين بالشراسة والقوة، ربما عاد ذلك إلى التقارب الشديد بينهما، إضافة إلى الأطماع التوسعية التي اتسم بها أصحابهما[2]، لذا كانت علاقة أشبيلية بجيرانها من بني الأفطس[3] حكام بطليوس سيئة للغاية، وقد قامت عدة حروب بينهما من أجل ضم مدينة لبلة التي تقع بينهما، واستعان بنو الأفطس ببني جلدتهم من البربر حكام قرمونة[4]، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم عام 421هـ /1030م وقتل أمير قرمونة كما قتل عبيد الله الخراز صاحب يابرة[5] وابن عم حاكم بطليوس، ونجا ابن الأفطس بصعوبة بالغة، وبلغ عدد قتلاه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف، وكانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بطليوس بقيت مدة من الزمن خالية من سكانها إلا من الشيوخ والنساء والأطفال[6]، وانتقم ابن الأفطس لنفسه من بني عباد بطريقة غير شرعية، لكنها تدل على روح العصر، وعلى ما ساده من صراع لا يحكمه أي مبدأ من مبادئ الأخلاق، ذلك أنه في عام 425هـ/1034م سمح عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس لجيش بني عباد أن يمر عبر أراضيه لقتال مملكة ليون، وأثناء عودته هاجمه ابن الأفطس بغتة، وقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا، وفر إسماعيل بن عباد ونجا من الموت بصعوبة، ومنذ ذلك الحين تأصلت العداوة والبغضاء بين بني عباد وبني الأفطس[7].

- **الصراع بين اشبيلية وغرناطة:**

وقفت مملكة غرناطة حجر عثرة أمام أطماع أشبيلية زمنا طويلا، فمع ما كان يتمتع به البلاط الأشبيلي من قوة عسكرية وأدبية على يد بني عباد، كان البلاط الغرناطي يتمتع كذلك بقدر كبير من القوة العسكرية على يد بني زيري[8]، الذين وقفوا أمام كل محاولة لاستئصال البربر في الأندلس، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم بقوة على الإمارات الجنوبية من الأندلس، وكان هذا بلا شك نذيرا باشتعال الحروب بين بني عباد وبني زيري، إذ يقف كل منهما في سبيل توسعات الآخر[9].

---

[1] بطليوس: تقع غربي مدينة قرطبة على الضفة اليمنى من نهر وادي يانة، تُجمع المصادر على أن عبد الله الجليقي هو الذي أنشأها، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص46.

[2] راغب السر جاني : قصة الأندلس، ج2، ط1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 2011م، ص404.

[3] ينتسبون إلى عبد الله بن محمد بن مسلمة الملقب بابن الأفطس من بربر مكناسة الذين استقروا بالأندلس فتأقلموا مع أهلها، انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص236.

[4] مدينة بالأندلس في الشرق من أشبيلية، وهي مدينة كبيرة وقديمة في سفح جبل حصين، تشتهر بالعسل، انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص158- 159 .

[5] مدينة قديمة من كور باجة الأندلسية، انظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص615.

[6] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج1، ص388.

[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص203.

[8] هم فرع من بني زيري الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية بأفريقية على عهد الفاطميين، انظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ص256.

[9] راغب السر جاني، المرجع السابق، ص408-409.

قام بنو عباد بالإيقاع بين بربر زناتة في قرمونة وبين صنهاجة وذلك حتى يصمدوا لتلك القوة الكبيرة التي شكلها بنو حمود[1]، وبني زيري في جنوب الأندلس، واستطاع بنو عباد قتل خليفة بني حمود يحي المعتلى في كمين عام 427هـ، ولما حاول بنو عباد الاستيلاء على قرمونة وأشبونة[2]، واستجة[3]، أرسل حكامها من البربر إلى بني حمود وبني زيري، الذين أسرعوا لنجدتهم، وتمكنوا من هزيمة جيوش بني عباد وقتل قائدهم إسماعيل بن عباد عام 430هـ[4].

استمر الصراع بين الفريقين حتى استولى بنو زيري على مالقة، وقضوا على بني حمود عام 429هـ/1057م، ثم استطاع بنو عباد الاستيلاء منهم على جيان عام 466هـ/1074م[5].

- الصراع بين طليطلة وسرقسطة:

كانت الخصومة بين طليطلة وسرقسطة شرسة، حيث احتدم الصراع بين بني ذي النون[6] البربر حكام طليطلة، وبين بني هود[7]، الجذاميين العرب حكام سرقسطة، وكان الصراع بين بني ذي النون وبني هود بسبب تنافسهم على انتزاع سلسلة المدن والقلاع والحصون التي تمتد بين الثغر الأعلى(سرقسطة)، وبين الثغر الأوسط (طليطلة)، من قلعة أيوب وحتى وادي الحجارة، حيث كانت هذه المناطق هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين[8].

---

[1] من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد غمارة في شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط، وفي خلال الفتنة التي عمت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية، انتهز أمير من سلالة الأمير أبي حفص عمر"علي بن حمود" وكان واليا على طنجة وسبتة، فاستولى على مالقة ثم تقدم إلى قرطبة، وقتل صاحبها الخليفة وذلك سنة 407هـ، وأسس دولة الحموديين التي كانت قاعدتها مالقة، أنظر: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق، ص256.

[2] مدينة بغربي باجة، وهي مدينة قديمة على سيف البحر تتكسر أمواجه على سورها، أنظر: الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص61.

[3] مدينة قديمة واسعة الأرباض، وعامرة الأسواق، تقع بين القبلة والغرب من قرطبة، أنظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص14-15.

[4] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص283.

[5] نفسه، ص284

[6] من قبيلة هوارة البربرية البرنسية، وبطونها كثيرة، واشتق اسم بنو ذي النون من اسم جدهم زنون الذي حُرّف إلى ذي النون، ومؤسسها هو إسماعيل بن ذي النون، أنظر: السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، المرجع السابق، ص51-52.

[7] تولوا الحكم بعد زوال دولة التجيبيين التي كانت تحكم سرقسطة قبل انفجار الفتنة، وتنتمي إلى المنذر بن يحي التجيبي، حتى استولى عليها سليمان بن محمد بن هود، الذي كان واليا على لاردة، ودانت له السلطة سنة 431هـ/ 1039م، وساس الإمارة، أنظر: ابن عذارى، ج3، ص175-176-180.

[8] راغب السر جاني: المرجع السابق، ص420-421.

ولما استول سليمان بن هود على وادي الحجارة، قامت قيامة المأمون بن ذي النون، واستعان بنصارى الشمال، ودعته الضرورة أيضا إلى محالفة المعتضد بن عباد والدخول في دعوته[1].

إزاء ذلك استعان ابن هود بملك آخر من نصارى الشمال واستطاع أن يعيث في طليطلة وأعمالها وأن يدمر زرعها، فأرسل إليه أهلها يطلبون الصلح، فتظاهر ابن هود بموافقتهم إلى ما طلبوا، ثم لم يلبث أن سار هو وحلفائه من النصارى، واحتلوا مدينة سالم التابعة لبني ذي النون، وساعده على ذلك عبد الرحمان بن إسماعيل بن ذي النون الذي كان ينازع أخاه يحي صاحب طليطلة في حكمها، ودامت الفتنة بين ابن هود وابن ذي النون من عام 435هـ إلى آخر عام 438هـ ولم تنته إلا بوفاة سليمان بن هود، ولما زال خطر سرقسطة عن طليطلة، بدأ أميرها يستعد لمنازعة ابن الأفطس صاحب بطليوس وبني جَهْور أصحاب قرطبة[2].

وما أن أحس بنو جهور بذلك حتى عقدوا حلفا مع أمراء بطليوس واشبيلية ضد بني ذي النون أمراء طليطلة، وتحالف هؤلاء بدورهم مع بلنسية ومع قشتالة النصرانية، واستطاعوا أن يُوقعوا بقوات قرطبة، لكن العبّاديين أنقذوها واستولوا عليها، وعاد الطليطليون مهزومين عام 452هـ/1060م[3].

وقام الدور الثاني من الصراع بين بني عباد في عهد المعتمد بعد وفاة والده المعتضد عام 462هـ / 1070م وبين المأمون بن ذي النون، وكانا أقوى ملكين في الأندلس في ذلك الوقت بعد أن حطمت الحروب الأهلية الدويلات الإسلامية الأخرى، ولما رأى المأمون أن اشبيلية مشغولة بحروبها مع بني حمود وبني زيري، وأن بني الأفطس يقتتلون فيما بينهم جيرانهم النصارى في حروب دموية مستمرة، رأى الفرصة سانحة للعمل، وانقض على العامريين أصحاب تدمير ومرسية[4] وانتزعها منهم، وكان هؤلاء حلفاء لبني عباد[5].

وما كاد المعتمد بن عباد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل وزيره ابن عمار إلى ريموند برنجار أمير قطلونية (برشلونة[6])، وحالفه على مساعدته ضد طليطلة، وما أن وصل ريموند إلى مرسية، حتى وجد قوات طليطلة وبلنسية وقونقة ودانية ومربيطر وشاطبة وشنتمرية الشرق والسهلة، تعاونها فرقة من المرتزقة من قشتالة وجليقية، فأدرك

---

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص285.

[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص280-283.

[3] يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، ج1، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1996م، ص49-51.

[4] مدينة محدثة إسلامية بنيت في أيام الأمويين الأندلسيين، تقع في شرق الأندلس، تشبه اشبيلية التي في غرب الأندلس، تتميز بكثرة المنازه والبساتين، أنظر: أبي الفداء: المصدر السابق، ص179.

[5] نفسه، ص54-55.

[6] برشلونة: مدينة للروم بينها وبين طركونة خمسون ميلا، وهي على البحر و الدخول إليها و الخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل المسمى بهيكل الزهرة، و برشلونة كثيرة الحنطة والحبوب والعسل، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة، أنظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، المصدر السابق، ص42.

استحالة الهجوم، لكن قوات طليطلة وحلفائها أجبرته على دخول المعركة، وهزمته هو وحلفائه الاشبيليين هزيمة ساحقة، واستولى المأمون على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى[1].

ولم يضيع المأمون وقته سدى، إذ وجه بعد ذلك عدة جيوش تجاه سرقسطة وبطليوس وجيان، وهنا يعود الصراع بينهما من جديد- أي بين طليطلة وسرقسطة- حتى لا يترك التحالف مع أشبيلية، وانقض جيشه على قرطبة بغتة، فسقطت دون مقاومة، ثم واصل جيش المأمون زحفه إلى أشبيلية ذاتها واقتحمها عام 468هـ/ 1075م منتهزا فرصة غياب المعتمد في حربه لبني زيري في غرناطة، لكن المأمون أطال البقاء في أشبيلية حتى اختتم المعتمد حربه بنجاح، وعاد إلى عاصمته واستردها منتهزا فرصة وفاة المأمون عام 469هـ/1076م[2].

استمر الصراع بين ملوك الطوائف حتى سقطت طليطلة في يد ألفونسوا السادس ملك قشتالة عام 478هـ/1085م، فأتوا إليه مهنئين، يحملون الهدايا، ويعلنون الطاعة، وكان سقوط طليطلة بهذا الشكل المخزي دليلا واضحا على فشل حكم ملوك الطوائف، ونتيجة طبيعية لذلك الصراع الذي استمر بينهم ولم يهدأ لحظة واحدة[3].

وخلاصة القول أن عهد الطوائف كان مليئا بأحداث الصراعات والخلافات التي استشرت بين ملوك الطوائف استشراء النار في الهشيم، حيث انشغلوا عن العدو الحقيقي وهم النصارى بقتال بعضهم بعضا، وهو ما دعا فقهاء الأندلس وعلمائها أن يجتمعوا، ويتشاوروا فيما يفعلونه، واستقر رأيهم على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب[4]، وقد وضع موقف الفقهاء ابن عباد تحت الأمر الواقع، مما جعله يستجيب لذلك، واستقر رأيه على إجابة الفقهاء لطلبهم بالاستنصار بيوسف بن تاشفين، ولكن ذلك قوبل بالرفض من باقي ملوك الطوائف، فأخذوا يخوفون المعتمد من عاقبة قدوم المرابطين للأندلس بقولهم له : **"الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد"**[5].

إن ما يفهم من هذا الموقف الغريب لملوك الطوائف إزاء تصرف المعتمد يعد دليلا واضحا على رضا هؤلاء الملوك بحياة الذل في ظل الترف وهم يتسمّون بالملوك تحت سياط النصارى، على قدوم ابن تاشفين وسيطرته على بلاد الأندلس وضياع ما في أيديهم من ممتلكات[6].

إن المتأمل لهذه الصراعات بين الإخوة المسلمين، وما جرّته من ويلات على المجتمع الأندلسي، حيث راح ضحية لها، يدرك تمام الإدراك أنها لم تكن بدافع نخوة ولا أنفة، وإنما

---

[1] نفسه، ص55.
[2] رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص287.
[3] ابن الكر دبوس: المصدر السابق، ص87-88.
[4] ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص28.
[5] الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص288.
[6] نادر فرج زيارة، المرجع السابق، ص243.

كانت بدافع التوسع وحب السيطرة والتملك والعيش في حياة ناعمة كلها ترف ودعة حتى ولو كان ذلك على حساب أشقاء الملة والدين، إذ كيف يعقل أن تسقط مدينة طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة478هـ /1085م دون أن يتحرك أحد من ملوك الطوائف حيال ما يجري لها، حيث تركوا مصيرها تحت رحمة ألفونسو السادس.

ب- الاستعانة بالنصارى والاحتماء بهم :

سبق وأن قلنا بأن العلاقة بين ملوك الطوائف السياسية قد اتسمت بالعداء والصراعات الدموية، وقد وصف ابن الخطيب هذه الحالة بقوله: "وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد، والتنافس، والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات "[1]، أما الأمير عبد الله بن بُلقين فقد صور الحالة السياسية السائدة آنذاك بقوله: "وبقي الناس لا إمام لهم، فتنافسوا على الدنيا وطمع كل واحد في الآخر ،وكذلك لا يصلح أمر بين نفسين، فكيف سلاطين كثيرة؟! وأهواء مختلفة"[2].

هذه الحالة أدت إلى طمع القوي بالضعيف، والتف كل عنصر حول حزبه، متناسين مسؤولياتهم الوطنية، وتجسدت العنصرية، والطائفية، والقبلية في الأندلس، فحرص كل منهم على السيطرة على جزء من الأندلس، وتقاسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى (المعتضد)، ومنهم من تسمى (المأمون)، وآخر (المستعين)، و(المعتمد)، و(الموفق) إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية التي تعكس حال التفكك والضعف والانقسام[3]، فسادت على اثر ذلك حالة من التردي والسقوط دفعت ببعض حكام الأندلس إلى التهاوي أمام رغباتهم وشهواتهم تلبية لعيش مترف رغيد، فلم يجدوا في قبائح الأفعال التي ارتكبوها أي غضاضة، فما لبث بعضهم يخوّف إخوانه بالنصارى، ويهدده بهم حتى استقدم بعضهم النصارى استنصارا بهم واستظهارا على إخوانه من أهل ملته، ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى قيام علاقات تحتية في هذا العصر بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال، حتى أن بعض المسلمين والوا النصارى سياسيا، والأكثر من ذلك فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزقة، ومن جانب آخر فانه وجد من المسلمين من فعل الأمر نفسه مع النصارى[4].

---

[1] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص244.

[2] عبد الله بن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469-483هـ) المسماة بكتاب التبيان، تحقيق: ليفي بروفنسال، د.ط ، دار المعارف، مصر، د.ت، ص18.

[3] صور هذه الحالة أبو علي الحسن بن رشيق بقوله: مما يزهدني في أرض أندلس سمـــاع مقتدر فيـها ومعتضـد
ألقاب مملكة في غير موضعهـا كالهر يحكي انتفاضا صولة الأسد،

انظر: المراكشي: المصدر السابق، ص123.

[4] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص248.

وتشير الأحداث الواقعة في الأندلس في هذا العصر إلى أن سمة الاستعانة بالنصارى أصبحت تطبع معظم الحكام في المجتمع الأندلسي في هذا العصر[1]، فقد تحالف المأمون بن ذي النون(1043-1075م)ملك طليطلة مع غريسة ملك نبرة(1035-1054م) ضد المقتدر بن هود ملك سرقسطة وتحالف هذا الأخير مع فردنا ندو ملك قشتالة (1035-1065م) ضد خصمه المسلم، وهكذا نجد ملوك النصارى يعيثون في وقت واحد وبمساعدة مسلمين في أراضي المسلمين[2]، كما تحالف المعتمد بن عباد ملك اشبيلية مع الفونسو السادس (1065-1109م) ملك قشتالة، وأدى له خمسين ألف دينار مقابل أن يعينه على الاستيلاء على غرناطة، على أن تكون المدينة للمعتمد، وذخائر القلعة الحمراء لألفونسو، وفي الوقت نفسه سعى ملك غرناطة عبد الله بن بلقين (465-483هـ/ 1073-1090م) إلى التحالف مع الفونسو نفسه، دفعا لأذاه ونكاية في المعتمد[3]، فتعهد له بدفع جزية مقدارها عشرين ألف دينار[4]، ولما تولى يحي بن إسماعيل بن ذي النون الملقب بالقادر أمر طليطلة عام (467هـ/1085م)،تراجع أمام ضغط قوة ألفونسو، وتنازل له عنها عام (478هـ/1095م)[5]، وسقطت المدينة من يد المسلمين من دون إراقة دماء[6]، مقابل إعانة ألفونسو للقادر على تملك بلنسية[7]، فكان ذلك أول وهن دخل من الفرنج على المسلمين[8]، إذ تُعد طليطلة أول ما استرد النصارى من الأندلس من يد ابن ذي النون سنة 478هـ وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال:

يا أهل أندلس حثوا مطيكـــم	فما المُقام بها إلا من الغلــــط
الثوب يُنسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنــــا	كيف الحياة مع الحيات في سفط[9]

لقد توالى تساقط المدن الإسلامية في يد النصارى من غير عناء يتكبدونه، وكانت بعض المدن تقدم لهم على أطباق من ذهب، فما فتحه المسلمون من المدن بالدماء ضاع هباء أمام رغبات وشهوات لحكام ضعاف، لا همّ لهم سوى المتعة والنعيم، وإتباع ألوان الترف المختلفة، فقد لجأ المتوكل بن الأفطس(460-487هـ/ 1067-1094م) إلى التنازل

---

[1] نفسه، ص248.
[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص277-282.
[3] ابن بلقين: المصدر السابق، ص69-76.
[4] راغب السر جاني: المرجع السابق، ص413.
[5] القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص253.
[6] كولان: المرجع السابق، ص133.
[7] القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص253.
[8] الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص61.
[9] المقري: المصدر السابق، ج4، ص352. ، عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ج5، د.ط، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، د.م، 1987م، ص41-43.

عن ثلاث مدن مهمة لألفونسو، في مقابل أن يقوم بإعانته على جيوش المرابطين، حتى أن أحد أبنائه لجأ إلى اللّيونيّين وأقام عندهم وتنصر[1]، ونتيجة لذلك فإن يوسف ابن تاشفين عاجله وألقى القبض عليه وقتله مع ولديه[2].

لقد كان وقوف النصارى مع بعض ملوك الطوائف ضد البعض الآخر له مقابل، وكان هذا المقابل يتمثل في البداية مالا يؤدى إلى الملك النصراني، إلا أنه لم يلبث أن تحول إلى جزية، يقع عبؤها على الرعايا الأندلسية ثم تحول فيما بعد إلى تنازل عن أراض إلى جانب الجزية[3].

وخلاصة القول أن الاستعانة بالنصارى كان لها تأثير كبير على المجتمع الأندلسي الذي أُثقل كاهله بالضرائب المجحفة بغرض دفعها كجزية لملوك النصارى نظير وقوفهم إلى جانب بعض ملوك الطوائف ضد إخوانهم، كل هذا يحدث بسبب نزوات ورغبات زائلة لحكام لا همّ لهُم سوى عيش مترف ومنعّم.

ج – انتشار الفساد بين ملوك الطوائف و طبقة الوزراء و الموظفين :

لقد أدت حياة الترف و البذخ في ظل حكم ملوك الطوائف إلى فسادهم، وفساد وزرائهم، و قاسى الشعب الأندلسي في ظل حكمهم كثير من ضروب الاضطهاد والظلم، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعا خاصة يستغلونها كيفما يشاءون ويجعلون من شعوبهم عبيدا ليس عليهم إلا الكد والكدح ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة، حتى ساءت حال الرعية و بلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل و الحشائش ولبسوا الجلود والحصر، وفرّ أكثرهم عن قراهم[4].

وقد أدت هذه الحال إلى أن قام الناس يبتهلون إلى الله بالخلاص من هؤلاء الحكام الظلمة، وسجلوا ذلك على لسان كتابهم المعاصرين أمثال ابن حزم وابن حيان، فهذا ابن حزم يرفع يديه إلى السماء ويقول: " اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، و بعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، ويجمع أموال ربما كانت سببا في انقراض أعمارهم وعونا لأعدائنا عليهم عن حياطة ملتهم ... "[5].

---

[1] نادر فرج زيارة: المرجع السابق، ص249.

[2] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج4 ص205.

[3] عمر راجح شلبي: "دور علماء الأندلس في الحياة السياسية خلال القرن الخامس هجري، " مجلة الجامعة الإسلامية، مج16، ع02، جويلية 2008م، ص262.

[4] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص162.

[5] ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج3 ص41.

وقد وصل انشغال الحكام بأمورهم الخاصة عن الكوارث التي كانت تصيب المسلمين على أيدي نصارى الشمال درجة تدل على أنهم لم يكونوا حكاما بالمعنى المعروف، بل زعماء أو رؤساء جماعات اعتبروا الشعب والأرض غنيمة لا تستحق حتى مجرد العناية بها والذّب عنها، فقد أغار فردناند ملك ليون علـى بطليوس ودمرها واستباح حريمها وفعل بها الأفاعيل، وورد الخبر على المأمون صاحب طليطلة، ولما دخل عليه وزيره ابن مثنى وجده شديد الإطراق والضيق، فأخذ يفرج عنه معتقدا أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين في بطليوس، لكن ابن مثنى ذهل عنـدما الـتفت إلـيه المأمون وقال له: " ألا ترى هذا الصانع الحقير الذي يتولى بنيان قصـري أنـه لا يمتثل لأمـري ويـنغص علي لذتي ويستخف بإمرتي "[1].

هكذا كان المأمون يهتم ببناء قصره، ولا يهمه أن يذهب مسلموا بطليوس إلى الجحيم[2]، واستمر الحال على هذا المنوال مع مزيد من الانحدار والتدني على أيام القادر "حفيد المأمون" الذي ابتنى مجلس الأندلس المعروف بالناعورة، والذي وصف بتناهي البهاء والإشراق و بالمباهي لزوراء العراق[3].

وقد أدى ذلك إلى أن يقول ابن حزم: " إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد، والذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين .. وضربهم المكوس والجزية على رقاب المسلمين وتسليطهم اليهود لتحصيلها، كل ذلك بموافقة رجال من أهل الفقه والدين المنافقين الذين لا يهمهم إلا مصلحتهم الشخصية"[4].

وقد أدى هذا الظلم في جمع الأموال من الرعية و تحصيلها بغير الطريق الشرعي، إلى قو ل المعاصرين: " أنه ليس في الأندلس درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يُستخرج من وادي لاردة[5] من ذهب "[6]، وكان أسلوب الحكام في جمع تلك الأموال من القسوة والعنف أن فر الناس وتركوا ديارهم وقراهم، هذا في الوقت الذي كان فيه ملوك نصارى الشمال الاسباني يوزعون ما تصل إليه أيديهم من أموال، سواء من الجـزية المفروضة عـلى المسلمين أو غير ذلك عـلى رجالهم، فكانوا يـدخلون الكـنـيسة ويقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس، ويأخذ مثلما يأخذون، وربما يتنازل عن نصيبه لـهم، وبـذلك كانوا يصطنـعون الرجال، بين كان سلاطين الأنـدلس يخزنون الأمـوال

---

[1] ابن بسام: المصدر السابق، ق04، مج1، ص147-148.
[2] رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص292.
[3] سعد زغلول عبد الحميد: "عملية الإنقاذ المرابطي في الأندلس ما بين ملوك الطوائف وجماعات الشعب العامل، " بحوث ندوة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص230.
[4] ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج3، ص173.
[5] نفسه، ص174.
[6] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص162

ويضيعون الرجال، فكان للنصارى بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال، وبذلك انتصروا وقهروا المسلمين وأذلوهم[1].

وكما كان فساد ملوك الطوائف في تضييع الأموال من أجل القصور المترفة، كان فسادهم أيضا في المجون والخلاعة وشرب الخمر والاستغراق في الملذات الجسدية والإكثار من الجواري[2].

وهذا هو يحيى المأمون ملك طليطلة الذي اشتغل بالخلاعة والمجون وأكثر مهادنة النصارى ومصانعتهم، حتى يكون لديه متسع من اللهو واللعب واقتناص أموال الرعية، أما علي بن مجاهد صاحب دانية فقد طلب السلم وأغمد السيف وكانت همته في خراج يُجْبيه، ومتجر يُنمّيه، وكان بعض خلفاء بني حمود يسيرون أيضا على هذا النهج، فلم يقع يحيى بن علي بن حمود قتيلا عام 427هـ إلا لأنه نزل ميدان المعركة مخمورا لم يفق بعد من سكره، ولم يكن كل هذا التهتك إلا نتيجة لضعف الوازع الديني وضياع القيم الأخلاقية واستئثار المنفعة الشخصية بكل شيء.[3]

هذا وقد كان ملوك الطوائف لا يتركون شيئا يدعمون به ملكهم ويظهر هيبتهم إلا حرصوا عليه واغتنموه، من ذلك بذلهم العطاء الوافر للشعراء والأدباء وإسرافهم في ذلك إسرافا لا مثيل له، وعلى سبيل المثال فقد منح المعتمد ابن عباد الشاعر عبد الجليل بن وهبون ألفين من الدنانير على بيتين اثنين من الشعر، بينما منح المعتصم بن صمادح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن أبي عبد الله بن شرف البرجي، عندما أتى إليه يشتكي من عامل تلك القرية، وأنشده رائيته الشهيرة التي مطلعها:

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ولما بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثـــر إلا الذي في عيون الغيد من حور

قال له المعتصم: " لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل وال"[4].

وكان كثير من ملوك الطوائف يقولون الشعر ويبرعون فيه، وقد شغلهم ذلك وشغلتهم حياتهم الخاصة عن سياسة ملكهم وإدارة حكمهم على النهج السليم، حتى قال البعض من

---

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص296.
[2] نفسه، ص296-297.
[3] نفسه، ص297.
[4] آنخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص97-111.؛ رجب محمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص295.

المستشرقين أن عبقرية مسلمي اسبانيا كانت من الطراز الأول، لكن نبوغهم السياسي لم يبلغ الكمال، وماذا يفيد الشعر والأدب في رد اعتداءات النصارى أو في رد المظالم عن الرعية؟[1] ويكفي ما قاله أحد البدو حينما سمع شعرا وعرف أنه للمعتمد بن عباد فقال: **"**أظن هذا الملك لم يكن له من المُلك إلا حظ يسير، ونصيب حقير، فمثل هذا الشعر لا يقوله من شُغل بشيء دُونه**"**[2].

وقد انتشرت هذه البلوى بين الوزراء والموظفين الصغار الذين أخذوا بدورهم يقلدون ملوكهم، ويدلون بدلوهم في نهب الرعية وظلم الناس[3]، إذ استغل الوزراء مناصبهم وتوسعوا في الضياع حتى صار بعضهم يملك ثلثي بلد مثل بنو عباد الذين ملكوا ثلثي أشبيلية، وتنامت ملكية بني طاهر حتى بلغت نصف مرسية[4]، وكانت هذه الضياع منتشرة في المناطق الزراعية الخصبة من مدن الأندلس إذ تركزت خاصة حول الحواضر الكبرى، وكان لحكام قرطبة وغرناطة وطليطلة وسرقسطة مثل ذلك[5]، كما جمع الكتاب وبعض الوزراء ثروات كبيرة بعد توليهم تلك المناصب التي حرصوا عليها كل الحرص حتى يستمروا فيها، وتطلع البعض منهم إلى أكثر من منصب، بل إن بعضهم تطلع إلى تأسيس دولة خاصة به، فاستقل ابن عمار وزير المعتمد بمرسية، وفي غرناطة صار لليهود نفوذ كبير وكثرت أموالهم بعدما تولى إسماعيل بن نغرالة اليهودي[6] الوزارة لبني زيري الصنهاجيين وصارت غرناطة تدعى مدينة اليهود لكثرتهم فيها[7].

كما استشرى الفساد بين الموظفين والحكام الصغار من رجال الشرطة ومحصلي الضرائب الذين أخذوا يقلدون ملوكهم، وكثرت أوصافهم بأنهم مرتشون أشرار ظالمون فجار لا دين لهم ولا يقين، على السلطان والقاضي أن يحاسبهم وأن يدبر شؤون الرعية، ولا يغلق بابه ويكثر حجابه[8].

---

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص295-296.

[2] آنخل جنثالث بالنثيا: المرجع السابق، ص106.

[3] صلاح خالص: المرجع السابق، ص42-43.

[4] محمد حصباية: الممالك النصرانية وعلاقتها بملوك الطوائف خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008م، ص78.

[5] ابن بلقين: المصدر السابق،ص79-80.

[6] هو إسماعيل ابن نغرالة ولد سنة 383هـ/993م، لم يكن أندلسي الأصل حيث كان من الطارئين على الأندلس، نشأ بقرطبة واضطرته فتنة البربر(399هـ) إلى الهجرة منها ، فسكن مالقة حيث افتتح له دكانا، وكان قد درس التلمود بقرطبة على الكاهن حنوك، كما درس الأدب العربي وغيره، حتى أصبح يتقن الكتابة بالعربية، اتخذه باديس وزيرا فأثبت في السياسة كفاية ممتازة، توفي سنة 448هـ/1056م، أنظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج3، ص8-9.

[7] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص264-266.

[8] ابن عبدون وآخران: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسبة، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955م، ص3،5،14،18،30.

لقد أدت سياسة ملوك الطوائف ورغبتهم هم ووزرائهم في البحث عن الغنى والأموال طمعا في حياة مترفة إلى ظلم للرعية واضطهادها، بفرض المغارم الكبيرة عليها حتى ساء حالها.

د- تدخل الجواري في أمور السياسة :

لم يقتصر نفوذ الجواري على بلا ط الخلافة الأموية والدولة العامرية(316-399هـ) فحسب، بل امتد إلى الفترات التاريخية اللاحقة من حكم ملوك الطوائف لاسيما ما شهده قصر غرناطة في ظل حكم بني زيري، وتحديدا فترة باديس بن حبوس[1](428-465هـ/1037-1072م)، وابنه بلقين الذي يشير في هذا الصدد بقوله: "ومما أعان على الفساد قبل ذلك أن أبانا[2] كان مع أمهاته اللائي ربين ولده المعز أخانا على ضد من الأمن، لإفراغهن على ابنه طفلا صغيرا ومنعه هو منه، فاحتاج إلى اليهودي عن المال، وكانت أمهاته يطالبنه ويمنعنه عن صحبة اليهودي حتى شعر بذلك، واتفق رأيهما على مطالبة النساء عند الرئيس، وتجريحهن بسرقة المال وإرساله إلى البلاد، فلما وقف جدنا[3] على المقالة، وقد وقعت المفاسدة بينهن وبين ابنهن، صار ملوما من الأب والنساء، وتحيل النساء على أن يبرأن أنفسهن مما قذفن به، ودعت الضرورة لسيف الدولة(بلقين)أن يتصالح مع النساء لرجوع أبيه معهن ورُدت القصة في رأس اليهودي "[4].

نستشف من النص السابق أن المربيات اللواتي هن من طبقة الجواري داخل قصر بني زيري بغرناطة كنّ يتلاعبن بأموال خزينة الدولة لخدمة أغراضهن الخاصة، ورغم إدراك باديس بن حبوس لأمرهن إلا أنه لم يستطع اتهامهن أو إبعادهن، بل عمل على مهادنتهن خشية من تفاقم كيدهن[5].

والذي ينهض دليلا على عدم خلو البلاط الزيري في عهد باديس بن حبوس(428-465هـ/1037-1072م) من سيطرة الجواري المربيات ومحاولتهن الحصول على الحظوة والترقية قول مؤرخ الدولة عبد الله بن بلقين :"إن الخنزير[6]- لعنه الله - لما رأى طغيان النساء، وكل فرقة منهن تريد ولاية من تربيه من أبناء السلطان..."[7]، فكانت هذه هي رغبة

---

[1] هو باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد التلكاتي، تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة 428هـ / 1037م، انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص262.

[2] المقصود به بلقين بن زيري المتوفى سنة 456هـ/ 1064م، انظر: فوزية كراز: دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس هجري إلى منتصف القرن السابع هجري، د.ط، دار الأديب، وهران، 2006م، ص27.

[3] المقصود به باديس بن حبوس، المتوفى سنة 465هـ / 1072م، انظر: نفسه، ص27.

[4] عبد الله بن بلقين: المصدر السابق ، ص41.

[5] فوزية كراز: المرجع السابق ، ص27.

[6] المقصود به الوزير ابن نغرالة اليهودي، انظر: عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص50.

[7] نفسه، ص50.

الجواري اللواتي يؤتى بهن لتربية الأولاد، وما أكثرهن خاصة على عهد ملوك الطوائف كما رأينا سلفا.

هذا ولم تسلم إمارة بني عباد بأشبيليه هي الأخرى من تدخل النساء الجواري، إلا أنه أخذ أشكالا وأهدافا أخرى غير تلك التي ميزت جواري البلاط الزيري، نشهد هذا مع الرميكية جارية المعتمد بن عباد وحظيته التي أمرت زوجها ليقتل الوزير أبا بكر محمد بن عمار بسبب هجائه لها[1]، ولو أنه لم يكن ذلك السبب الحقيقي في قتله، بل وجدت أسباب سياسية أدت إلى ذلك، والمتمثلة في استغلال أبي بكر هذا مكانته الرفيعة لدى المعتمد فحاول اقتسام ملكه عندما وثب على مرسية، بعدما استرجعها ابن عباد، وهو الأمر الذي أقلق الرميكية ورفضته، فقتله ابن عباد بأمر منها[2].

الواضح أن الرميكية كانت إلى جنب المعتمد فهي التي نبّهته إلى الخطر الذي أحدق به، والذي هدف إلى اقتسام ملكه، وهذا دليل كاف على احتلالها مكانة بارزة بالبلاط في حياة المعتمد، كما أنها اضطلعت بالدور الأول في حياته، فكانت بذلك من أقوى العوامل في إيغار صدره على ابن عمار[3].

ولقد أثّر تدخل الرميكية في أمور السياسة على المجتمع الأندلسي الذي رفض ذلك، فلم تلق سياستها استحسانا من قبل الفقهاء، وقد أشار رينهرت دوزي أن المتدينين كانوا لا ينطقون اسمها إلا مستعيذين بالله، ويعدونها أكبر عقبة في سبيل هداية زوجها، وهي التي تدفع به للانغماس في اللهو والملذات، وإذا ما رأوا المساجد غير عامرة بالمصلين يوم الجمعة، نسبوا إليها انصراف الناس عن الصلاة[4]، ولو أننا لم نعثر في المصادر التي بين أيدينا والتي أرخت لها ما يثبت صحة ذلك.

وهناك جانب آخر لتدخل الجواري أيام ملوك الطوائف، وهو إلهاؤهن المسؤولين عن القيام بواجباتهم بإغراقهم في بحر الملذات والشهوات، إذ أن الانسياق وراء أهواء الجواري يجر في الغالب إلى التردي في حمأة الخلاعة والمجون، وربما الرذيلة والفسوق والفجور، إذ كان من أهم أهداف بعضهم الجري وراء النساء، وما يتحصل عليه من مباهج الدنيا

---

[1] مما جاء في هجاء ابن عمار للرميكية قوله: تخيرتها من بنات الهجان رميكية لا تساوي عقالا، وقيل أن هذا الشعر ليس لابن عمار وإنما نسبته إليه حتى توغل صدر ابن عباد عليه، انظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، المصدر السابق، ج2، ص62-63.

[2] فوزية كراز: المرجع السابق، ص29.

[3] نفسه، ص29.

[4] رينهرت دوزي: المسلمون في الأندلس، ج3، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م، ص93-94.

وملاذ الحياة[1]، وهذا ما رأيناه مع المعتضد وابنه المعتمد اللذان أكثرا من الجواري وخلطا في أجناسهن.

يستنتج مما سبق أن الجواري قد لعبن دورا كبيرا في تسيير دفة الحكم، وإبداء رأيهن في السياسة، وهو ما ألب عليهن المجتمع خاصة طبقة الفقهاء التي كانت رافضة لحكمهن.

هـ - إغارة النصارى و توالي الهزائم العسكرية :

لقد استفحل الخلاف والتنافس على المادة من أجل حياة باذخة بين ملوك الطوائف، كما استفحل كذلك ضعف كل منهم أمام رغباتهم، وكان من نتائج ذلك طمع النصارى في الاستيلاء على المدن الأندلسية[2].

ففي غمرة الصراع السياسي الداخلي الحاد والانحلال الخلقي العام، الذي ترتب عنه ظلم للرعية واضطهادها بفرض المغارم الكبيرة عليها حتى ساء حالها، تسلطت القوى المسيحية على الحكام المسلمين المتصارعين وفرضت عليهم علاقات مهينة ومذلة، مما أدى إلى انهيار نفسية الأندلسيين وانهزام معنوياتهم، وفي ظل السلم المسيحي اضطر ملوك الطوائف إلى دفع الجزية لها، والاستسلام للهزيمة أمامها، فيما عجزوا عن حماية سيادة ملكهم واكتفوا بالتخفي وراء الأسوار تاركين القوات المسيحية تجوب أرجاء الأندلس في أكثر من رقعة دون رادع أو مانع[3]، ويعبّر ابن عذارى عن هذه الحقيقة فيقول: " ...خرج فردنا ندو إلى ثغر طليطلة سنة 444هـ / 1063م و أفنى حاميته و رجاله، و عاث في البلاد تخريبا وحرقا دون أن يلاقي من يقف في وجهه، وأصبح الناس يتهربون من أمامه من كل جهة إلى طليطلة، حتى غصت بهم واضطربت أحوالها ..." ، ولم يقدر أميرهم ابن ذي النون أن يفعل شيئا، وأصبح الأندلسي لا يكاد يلقى مسيحيا إلا فر أمامه حتى تعودوا ذلك منهم [4].

وكمثال صارخ عن هذه الحالة النفسية التي أصبح يعيشها الأندلسي نجد أن القشتاليين قد نازلوا أهل غرناطة سنة 478هـ / 1085م في عقر دارهم، على الرغم من أن غرناطة تفصلها عن قشتالة مملكتي أشبيلية وطليطلة، فأخليت المزارع والأرباض لسماع الخبر ووقع الرعب في قلوب أهلها وتحصنوا بالمدينة، ووُجد في إحدى المرات أربعمائة جندي من ألمرية من نخبة الجند هربوا من ثمانين قشتاليا، حتى صار الخمسة من المسلمين لا يقومون لواحد من القشتاليين، فعمّ اليأس جل الأندلسيين من ملوكهم ورأوا أنه لم يبق أمامهم

---

[1] علي حسين الشطشاط: المرجع السابق، ص85.

[2] عبد الحليم عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا - دراسة لسقوط ثلاثين دولة، ط2، مؤسسة عبد الحكيم لعرابة، الجزائر، 2009م، ص31.

[3] محمد حصباية: المرجع السابق، ص79.

[4] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص281-306.

إلا إحدى أمرين إما الرحيل عن أوطانهم، وإما الدخول في طاعة قشتالة، وبالتالي أصبح الأندلسيون مجرد سجناء في شبه الجزيرة، ولن يُطلق سراحهم إلا بالموت أو الفرار منها إلى أرض أخرى، وهذه الحالة سمة من السمات التي طبعت عصر ملوك الطوائف[1].

ولم يكن هذا الشعور قاصرا على المسلمين بل تعداهم إلى العدو النصراني الذي أدرك أن حصون المسلمين الداخلية قد ضعفت وأن الفرص أصبحت مهيأة له لدخول الثغور والحصون الخارجية ولهذا وضع خطة حربية تتناسب مع ذلك الواقع وقد أبان هذه الإستراتيجية الحربية فرنا ندو بن شانجة ملك جليقية أثناء حصار النصارى لمدينة طليطلة سنة 478هـ حيث قال لأهلها الذين خرجوا يطلبون الصلح معه لما أعيتهم المقاومة: "...ما أجيبكم إلى سلم، ولا أعفيكم من حرب ..."، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضي لكم ، وقد نُصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم - يعني بلاد المغرب- واتركوا لنا بلادنا، فلا خير في سكناكم معنا بعد اليوم[2].

كما أبانها الفونسو السادس – ملك قشتالة – حيث قال لرسول المعتمد بن عباد حينما قدم إليه: "كيف أترك قوما مجّانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسُلُّ في الذّب عن نفسه سيفا، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفا، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان؟! وكيف يحل لبشر أن يقرّ منهم علي رعيته أحدا، وأن يدعها بين أيديهم سدًى!؟ "[3]

هذا و يذكر الأمير عبد الله بن بلقين - أحد ملوك الطوائف - في مذكراته أن الوزير النصراني ششندو[4]قال لمسلمي غرناطة قبيل سقوط مدينة طليطلة بأيدي النصارى سنة 478هـ / 1085م: " إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأنخس البقاع جليقية، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف "[5].

---

[1] ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص21.

[2] ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص282.

[3] ابن الكر دبوس: المصدر السابق، ص89.

[4] هو من المستعربين الذين نشئوا في مملكة أشبيلية، أسره المعتمد بن عباد في إحدى غزواته على مدينة شنترين، يعد من أنجب المستعربين الذين اعتمد عليهم المعتمد في السلم والحرب، انتقل إلى خدمة فرديناند بعد أن خاف على نفسه في بلاط المعتمد، وقد عمل في بلاط فرديناند سفيرا بينه وبين ملوك الطوائف، ثم انتقل إلى خدمة ألفونسو، عين على قلمرية ثم طليطلة، توفي سنة 484هـ -1091م، أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق04، مج1، ص161-169.

[5] عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص73.

ولقد تميزت سياسة الممالك المسيحية تجاه القوى الإسلامية بالجنوب، بالسعي الحثيث إلى إذلال وإضعاف حكامها من خلال تشجيع ودعم مشاكلهم وأزماتهم، وذلك لانسجامها مع التطلعات القريبة والبعيدة الرامية إلى نسف أركان التواجد الإسلامي في الأندلس، وقد وجدت الممالك المسيحية وعلى رأسها قشتالة في إذكاء الصراع الدائر بين ملوك الطوائف وبتهديد بعضهم للبعض وسيلة لإضعافهم خدمة لمصالحها على المدى البعيد، فأقبلت كل من قشتالة وبرشلونة على إمداد أطراف الصراع بفرق من جيشيهما لمؤازرة المتصارعين على حد سواء مقابل مبالغ مالية عالية تثري بها خزائنها[1].

وإمعانا في إضعاف ملوك الطوائف شنت الممالك المسيحية وعلى رأسها قشتالة حربا اقتصادية تهدف إلى إحراق الأراضي الزراعية، فبادرت إلى استعمال أسلوب الغارات التخريبية ضد الأرياف التي تمد المدن الأندلسية الكبرى بما تحتاج إليه من ضروريات الحياة، مما يجعلها عاجزة عن صد أي هجمة توجهها ضدها مملكة قشتالة، وكانت هذه الغارات تتفاوت في حجمها حسب أهمية الغارة وأهدافها، متخذة من عنصر المفاجأة عاملا من عوامل نجاحها، فتتم عملية قطع الطرق والاستيلاء على مناطق التحصين القريبة من المكان المستهدف، ثم ينزلون إلى البساتين والجنات فيأكلون ثمارها ويحرقون مزارعها ويقطعون أشجارها ثم يحصلون غنائمها[2].

على هذا النمط تعرضت أغلب مدن الأندلس لمثل هذه الغارات، إذ استهدفت بلنسية وأشبيلية وطليطلة وبطليوس عدة مرات من قبل فرنا ندو ملك قشتالة، بل إن جيشه كان ينزل نزول إقامة في بسائط طليطلة أوقات الحصاد، فيحمل الغلال إلى قشتالة ليستعين بها وقت الحاجة، كما جدد الفونسو السادس هذه الحملات حينما استقر له الوضع في مملكته ليون و قشتالة، فداهمت قواته مدن بلنسية ودانية وطرطوشة وأشبيلية وتوغلت قواته جنوبا إلى مملكة غرناطة، فألحقت هذه الحملات أضرارا فادحة بفلاحة هذه المناطق، ونالت طليطلة الحصة الكبرى منها فذهبت أكثر أموال أهلها بتكرار الغارات عليها وفشت فيها الجوائح[3].

لم يكن لهذه الحملات العسكرية نتائج مدمرة على الأرياف فحسب، بل كان تأثيرها بالغا على الحواضر الأندلسية أيضا، إذ انقطعت عنها مواد التموين الضرورية التي تجلب إليها من الأرياف، ضف إلى ذلك نزوح معظم السكان الفارين من الأسر أو القتل، فازدحمت بهم المدن وغلت الأسعار وصار الناس في ضنك من العيش، بينما أدت هذه الحملات لقشتالة مكاسب منقطعة النظير، وقد كانت كل هذه الأحداث الحاسمة تجري في

---

[1] عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص72-73.

[2] عادل سعيد بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ 100عام من المواجهة والاضطهاد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت، ص79.

[3] ابن الخطيب: أعمال الأعلام، المصدر السابق، ص243.

ظل عجز ملوك الطوائف عن صون ممالكهم، فيما استمر جنود قشتالة في توغلهم داخل أراضيهم ليتحكموا عندئذ في عملية سير القوافل المارة بين مدن شرق الأندلس وعلى رأسها مدينتي مرسية وغرناطة[1].

لقد فشل ملوك الطوائف في لمّ شعثهم، أو التكتل ضد النصارى، حتى أخذ منهم الفونسو السادس ملك قشتالة الجزية والإتاوات التي يرفع من قيمتها سنة بعد أخرى، واستطاع أن يعد العدة من الإتاوات التي يفرضها عليهم ليلتهمهم بها كلهم[2]، حيث في عهده تحولت الجزية إلى أهم مصدر لدخل قشتالة، وتشير التقديرات أن ألفونسو السادس كان يجمع من أموال الجزية ما مقداره أربعين كيلو غرام من الذهب، إضافة إلى التحف التي تنافس ملوك الطوائف في جمعها وإهدائها إياه، ويبدو أن جزءا من هذه الأموال تذهب لتنفق على الجيش القشتالي الذي يبتز أموال ملوك الطوائف من خلال التهديد بالحرب، وكأنهم بطريقة غير يمولون الحرب ضد أنفسهم[3].

هكذا كشر النصارى عن أنيابهم العدائية فأبانوا خططهم ونواياهم ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس، كما بدءوا في عملياتهم الحربية و التي أسموها بحركة الاسترداد "La reconquista" حيث تمكنوا خلالها من اجتياح العديد من المدن و الثغور الإسلامية ومن أهمها مدينة قلمرية وبربشتر سنة 456هـ / 1063م، وطليطلة سنة 478هـ / 1085م[4].

وكان لسقوط طليطلة[5] في يد الفونسو السادس أعظم الأثر في حركة الاسترداد، و في إلهاب حماس القوى النصرانية، فقد كانت هذه المدينة في الماضي عاصمة لدولة القوط، وكان استردادها نذيرا بإحياء ملك القوط القديم، والعمل على طرد المسلمين نهائيا من الأندلس[6].

لكل ما سبق يمكن القول أن حياة الركود والدعة و التفرق التي مر بها المسلمون في طليطلة والأندلس، كانت عبارة عن حالة من الشيخوخة التي وصل الأندلسيون إليها، لذلك

---

[1] محمد حصباية : المرجع السابق، ص87 ؛ Clare(Lucion): Le moyen Age Espagnol , Libraire Armand Colind , Paris , 1972 , p25 .

[2] عبد الحليم عويس: أوراق ذابلة من حضارتنا - دراسة لسقوط ثلاثين دولة، المرجع السابق، ص36.

[3] Fossier Robert: Enfance de L'Europe Aspects économiques et sociaux, L'homme et son espace, Les éditions P.U.F, Paris , 1982 , p127.

[4] الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص90.

[5] قال بعضهم يندب طليطلة: خذوا ثار الديانة وانصروها ... فقد صامت على القتلى النسور

ولا تهنوا و سلوا كل عضب ... تهاب مضاربا عنه النحور

وموتوا كلكم فالموت أولى ... بكم أن تجاروا أو تجوروا

أصبرا بعد سبي و امتحان ... يلام عليهم القلب الصبور؟

أنظر: علي حسين الشطشاط: المرجع السابق، ص31.

[6] محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1، دار النفائس، بيروت، 2005م، ص470.

يمكن القول أن الأمة أو الدولة التي تكون ضعيفة سياسيا وعسكريا، ومفككة ومنقسمة على نفسـها، وتنصرف إلى حيـاة الترف والملذات، وترضى بعيشة الـدعة والذل والهوان، لا بد أن تمر بفترة ركود وضياع، وتنهار، ومن المؤكد في مثل هذه الحالة أن تستولي أمة أو دولة أخرى على مقاليد الأمور وتبسط هيمنتها على البلاد و تسوم سابقتها العذاب، لأن أمة أو دولة راكدة متجمدة لا بد وأن تتراجع و بالتالي تقهرها أمة أخرى فتية لديها من عوامل البقاء والازدهار ما يكفي لأن تحتل مكانة الأمة والدولة السابقة، وهذا ما حدث في الأندلس[1].

وخلاصة هذا الفحص التاريخي يمكن القول: أنّ العد التنازلي للوجود الإسلامي بالأندلس قد بدأ منذ ظهر الترف جليا على عهد ملوك الطوائف الذين حادوا في كثير من تصرفاتهم عن الخط الإسلامي، وأن هذا الضعف الذي مني به المسلمون في الأندلس هو في تقديري المرحلة المبكرة من مراحل سقوطهم هناك.

2- الانعكاسات الاقتصادية:

- كثرة المكوس و الضرائب:

فرض ملوك الطوائف على الرعية ضرائب ثقيلة من أجل سد حاجياتهم الثلاث، دفع الجزية لألفونسو السادس، وهذه الجزية تختلف من عام لآخر، وتتأثر بحال الرضا والغضب، وفُرضت الضرائب لدفع مرتبات الجند، كما فرضت للإنفاق على حياة الترف[2]، والذي يهمُّنا هنا هو الضريبة الأخيرة التي فرضت على الرعية من أجل الإسراف على حياة البذخ من بناء قصور ودور، واقتناء فاخر الأثاث ورفيع الرياش، وسائر صنوف الترف.

وبطبيعة الحال كانت تلك المباني الفاخرة وما يقام فيها من الاحتفالات المترفة تستنزف الكثير من الأموال، الأمر الذي تطلب فرض المزيد من أموال الجباية على الكادحين في مختلف المهن و خاصة الزراعية[3].

وهكذا كانت الجباية المفروضة على أراضي بلنسية مثلا سنة 441هـ / 1049م قبل أن تؤول إلى القادر سبعين ألف دينار شهريا، بينما كان خراج شاطبة المعدودة من أعمالها خمسين ألف دينار شهريا، فكان خراج المدينتين معا مائة و عشرين دينار شهريا، ولما كان استخراج هذا المبلغ الضخم يتطلب استخدام العنف، فإن الأمر أدى إلى فقر الرعية المثقلة

[1] هاشم عبد الرؤوف: رسالة ووصية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري، د.ط، دار البشير، د.ت، ص75.
[2] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين، د.ط، دار الشروق، الأردن، 1997م، ص33-34.
[3] سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص231.

بالضرائب، فساءت أحوالها[1]، " حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر، ويأكلون البقل والحشيش، الأمر الذي انتهى بجلاء الفلاحين عن الأرض، والهجرة عن قراهم "[2].

كما عانت الطبقة الدنيا في غرناطة من زيادة الضرائب التي كان ملوك بني زيري يثقلون كواهل أفرادها بها، و لم يكن لها خيار إلا أن تخضع لما يفرض عليها من المغارم التي يستخدمها الملك لإقامة بلاطه الفخم[3]، وكان حكام غرناطة ينفقون قسما كبيرا مما يجمعونه من ضرائب على بناء القصور والدور، واقتناء الأثاث وسائر صنوف الترف، وما كثرة الأموال والذخائر والجواهر التي تركها الأمير عبد الله في داره إثر سيطرة المرابطين على عرشه إلا تجسيدا لبذخه وترف أسلافه، وقد اعترف عبد الله نفسه بتلك الأموال وقال أنها بلغت ستة عشر ألف دينار، وأربعة آلاف مثقال من الذهب وخمسة عشر عقدا[4].

هذا وقد فرضت في عهد الطوائف أنواع من الجباية على الرعية، كما فرضت المغارم على الأهالي حتى الحجاج لم ينجُوا من دفع المغارم في موسم الحج، إلى أن أبطل ذلك يوسف بن تاشفين بعد دخوله الأندلس، وقضائه على ملوك الطوائف[5]، وقد كان موظفو الدولة ممن يتولون شؤون الرعية لا يراعون الشرع، ولا همَ لهم إلا أن يزدادوا ثروة خاصة أولئك الذين أوكلوا بجمع الضرائب ومراقبة الناس، فابن عبدون يصف أعوان صاحب المدينة بأنهم شر الناس و لا يجب أن يصدق كلامهم، إلا إذا شهد على ذلك الجيران " ...لأن الشر أحب إليهم من الخير، فمنه يأكلون ويلبسون السحت، ومنه يعيشون، وليس للخير إليهم طريق، يجب أن لا يخرج منهم في رسالة في المدينة أكثر من واحد لئلا يكثر الهرج والأذى و النهب "[6].

وفي ظل هذا الحكم اضطرب المجتمع الأندلسي، وانتكست مُثله، واشتد الغلاء وانتشرت الأوبئة وعمت الكوارث، فقد كانت رحى الحروب تعصف بالرعية، وانعدم الاستقرار والأمن، وفسدت أخلاق الناس، واستبيحت المحرمات، وهُتكت الأستار، ونُقضت شرائع الدين، وفسدت نفوس الحكام والمحكومين، حتى أنه لم يعد يُعلم في الأندلس درهما أو دينارا حلالا[7].

---

[1] نفسه، ص231.
[2] ابن بسام: المصدر السابق، ق03، مج1، ص19 ؛ ابن عذارى: المصدر السابق، ج3، ص162.
[3] مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، المرجع السابق، ص265.
[4] عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص155- 158.
[5] ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص285.
[6] ابن عبدون وآخران: المصدر السابق، ص16.
[7] ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج3، ص177.

3- الانعكاسات الاجتماعية:

أ- تفشي الإباحية والرذائل الخلقية:

لقد أدت حياة الترف والبذخ التي ارتضاها ملوك الطوائف ووزرائهم وكبار الموظفين إلى انتشار الإباحية والرذائل الخلقية في وسطهم ووسط جماهير الشعب المغلوبة على أمرها والناس على دين ملوكهم كما يقولون[1]، ولعل هذا الفساد في الأخلاق هو نتيجة حتمية لكثرة الترف والانهماك في الشهوات، وهذا ما يبنه ابن خلدون في حديثه عن مفاسد الحضارة فيقول: "ومن مفاسد الحضارة أيضا الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المأكل والملاذ، والمشارب وطيبها، ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط"[2].

وقد انتشرت الإباحية والرذائل الخلقية انتشارا رهيبا فهذه ولادة القرطبية بنت المستكفي الأموي، والتي عاشت عصر ملوك الطوائف، كتبت بالذهب على ردائها:

أنا والله أصلح للمعالـــــــــــي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وأمكن عاشقي من صحن خدي ... وأعطي قبلتي من يشتهيها[3].

وتكتب إلى ابن زيدون يوما:

ترقب إذا جن الظلام زيارتـــــــي ... فانـــي رأيت الليل أكتم للســـــر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالشمس لم تطلع وبالبدر لم يسر[4]

وكان يشارك ولادة في هذه الظاهرة اللّاأخلاقية كثيرات من حرائر الأندلس[5]، الذين غلبت عليهم الإباحية والمجون فكان ذلك تعبيرا صادقا عن التهتك المزري الذي بلغه المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف[6].

وقد بلغت الإباحية والاستخفاف بالدين أو النزوع منه نهائيا أن عرف المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف ظاهرة عشق الغلمان، حيث عشق إبراهيم بن سيار

---

[1] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص300.
[2] ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص378.
[3] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص300.
[4] المقري: المصدر السابق، ج4، ص206 ؛ ويروى البيت الثاني بطريقة أخرى، أنظر: ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج 1، ص430.
[5] عدنان مردم بك: "هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس"، محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي، مج4، د.ط، منشورات وزارة الشؤون الدينية، تلمسان، 10-19 جويلية 1975م، ص1502.
[6] سعد بوفلاقة : المرجع السابق، ص141.

النظام رأس المعتزلة في الأندلس فتًى نصرانيا ووضع له كتابا في تفضيل التثليث على التوحيد تقربا إليه[1]، وهناك من مات من الشعراء لأنه لم ينل محبوبه من الفتيان- كأحمد بن كليب[2]- الذي هام في حب أسلم ، ومما جاء في هيامه قوله :

أسلمني في هــوا ه أسلم هذا الرشـــــــــا

غـزال له مقلـــة يصيب بـــها من يشـــــــا

وشى بيننا حاســد سـيسأل عـــــما وشـــى

ولو شاء أن يرتشي على الوصل روحي ارتشى[3].

ولما علم أسلم بأن الحب بلغ ببن كليب هذا المبلغ انقطع عن جميع المجالس ولزم بيته، فوصل الخبر إلى ابن كليب فتألم ألما شديدا لذلك حتى أصابته علة أدت إلى موته[4].

كما كان الشاعر ابن سهيل الإسرائيلي[5] يهوى غلاما يهوديا اسمه موسى، راح يتغزل به ومما قاله فيه:

كأن الخال في وجنات موسى سواد العتب في نور الـــوداد

أخط لصدغه في الحسن واوا فنقطة خاله بعض المـــــداد

لواحظه مُحيّرة ولكـــــــن بها اهتدت الشجون إلى فؤادي

ومن قصيدة له في الغلام موسى:

وصالك أشهى من معاودة الصبا وأطيب من عيش الزمان الممــهد

عليك فطمت العين من لذة الكرى وأخرجت قلبي طيب النفس من يدي[6]

أما عبد الله بن يحي الأزدي المعروف ببن الحديري فانه رضي بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعا في الحصول على بغيته من فتى كان علقه[7].

---

[1] نفسه، ص300-301.

[2] هو أحمد بن كليب النحوي، أديب وشاعر مشهور في الشعر، ولاسيما شعره في أسلم، وكان قد أفرط في حبه حتى أدى ذلك إلى موته، أنظر: ابن حزم: رسائل ابن حزم، المصدر السابق، ج1، ص315.

[3] نفسه، ص316.

[4] نفسه، ص316-318.

[5] هو شاعر ماجن قصر أكثر شعره على الغزل المذكر، أنظر: عدنان مردم بك: المرجع السابق، ص1501.

[6] نفسه، ص1501-1502.

[7] ابن حزم: طوق الحمامة، المصدر السابق، ص129.

ومن بين الرذائل الخلقية التي انتشرت في عصر ملوك الطوائف شرب الخمر، حيث كان شرب الخمر في قرطبة وغيرها من بلدان ملوك الطوائف أمرا لا غرابة فيه في ذلك العصر[1]، كما ذكر المقري أن وادي اشبيلية لا يخلو من جميع أدوات الطرب وأن شرب الخمر فيه غير منكر[2]، ولعل القارئ لدواوين الشعر في ذلك الوقت يدرك كيف أن وصف الخمرة والتغني بها كان أمرا مألوفا عند كثير من شعراء ذلك العصر حتى قال أحدهم:

جرت مني الخمرة مجرى دمي فجل حياتي من سكرها[3].

ولم يكن هذا الأمر قاصرا على فئة معينة من الناس، بل كان كثيرا من الناس يقضون لياليهم أيقاظا يجتمعون على الكؤوس حتى الصباح[4]، وقد كانت هذه الفواحش في بعض الأحيان ترتكب على علم من الأهل، ولم يكن للأهل سبيل لعلاجها إلا بالنصيحة، وأحيانا بالهجاء، بالرغم من أنهم من ذوي السلطة، كالوزير أبي بن الملح[5]، الذي كان ابنه مسرفا على نفسه في المعاصي كالزنا، وشرب الخمر[6].

هكذا غرق المجتمع الأندلسي في مستنقع الفحش والرذيلة في زمن ملوك الطوائف، ولم يكن هذا إلا انعكاسا للنظام السياسي لملوك الطوائف الذي شجع في بعض الأحيان هذه الظواهر، فكيف لا تكون كذلك وملوك الطوائف كانوا من أصحاب اللذة والتباهي، والتبذير والإسراف والانعزال عن المجتمع![7].

ب- شيوع الآفات الاجتماعية :

لقد أدت الرغبة في حياة الترف بالبعض إلى انتشار الربا بين الناس، كما تحايل البعض على منع الزكاة، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية حتى يثروا على حساب الغير، تقليدا لحكامهم، وجرهم هذا إلى إتقان تزييف العملة حتى أن البعض من الناس كان يشترط قبل البيع والشراء أن يكون التعامل بنقود طيبة غير مغشوشة مما يدل على انتشار هذا النوع من الجرائم الاقتصادية، أما الرشوة والسمسرة وأكل أموال اليتامى، والكذب والغش والسرقة واللصوصية وغيرها من الرذائل والعيوب الاجتماعية، فقد انتشرت بين الناس انتشارا واسعا[8].

---

[1] ابن بسام: المصدر السابق، ق01، مج1، ص382.
[2] المقري: المصدر السابق، ج4، ص199.
[3] ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص300.
[4] رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص300.
[5] من جلساء المعتمد بن عباد، أنظر: المقري: المصدر السابق، ج4، ص263.
[6] نفسه، ص148-149.
[7] لخميسي بولعراس: المرجع السابق، ص117.
[8] السقطي: المصدر السابق، ص36-37؛ محمد رجب عبد الحليم: المرجع السابق، ص301.

وهذا كله نتيجة لحياة الترف والبذخ الزائد التي ارتضاها ملوك الطوائف ومن تبعهم، وهي سمات لا تنطوي إلا على ضعف واضطراب الوضع السياسي وكذا تفشي التعفن الاجتماعي والأخلاقي في أوساط المجتمع الأندلسي.

الخـاتـمة

الخاتمة:

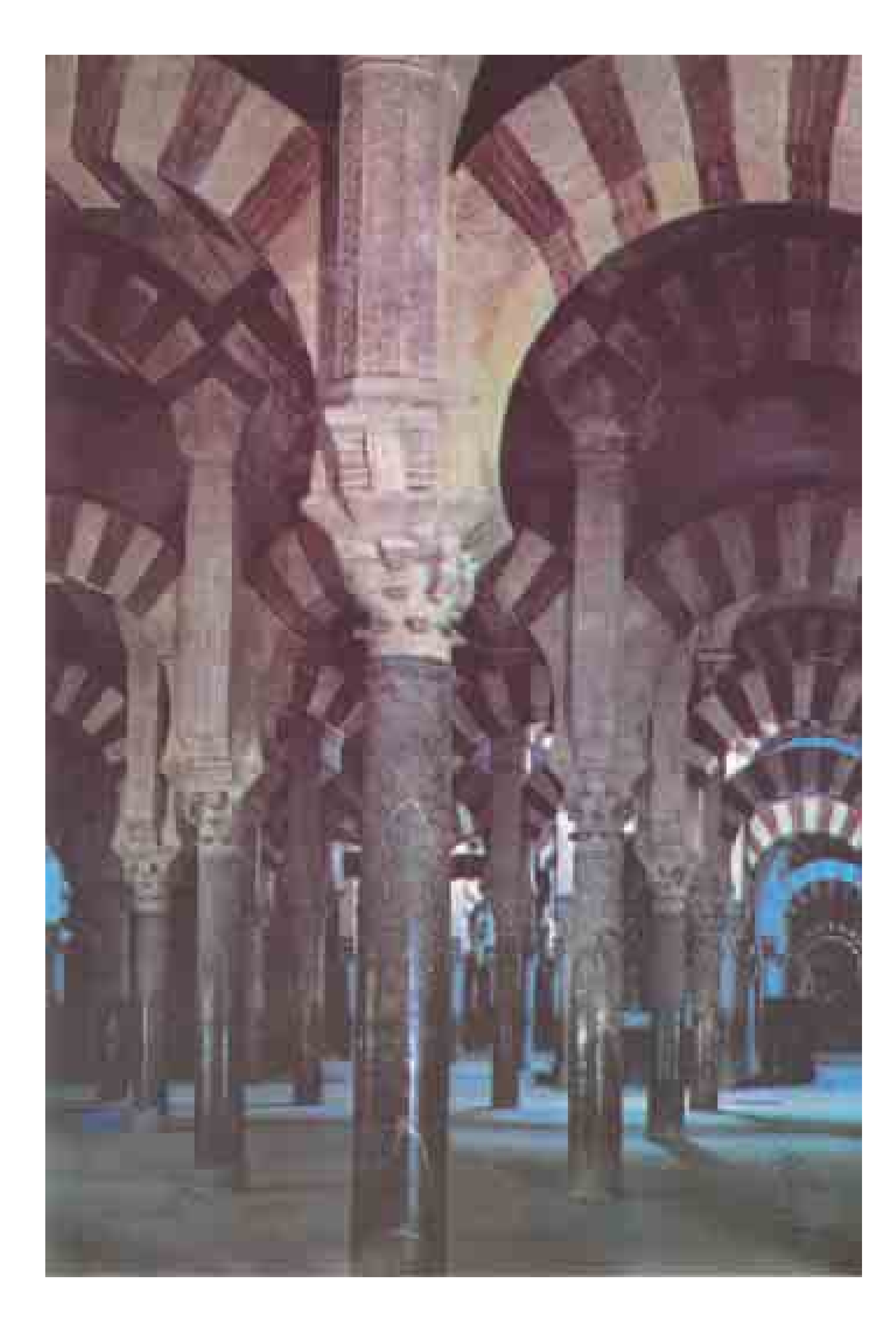
نخلص في نهاية بحثنا إلى مجموعة من النتائج نوردها كالآتي:

- الغنى أو امتلاك المال لا يعد ترفا ولا بذخا، فالترف والبذخ هو كفران لنعمة المال بالانغماس في حياة النعيم وتجاوز الحد المباح من الطعام والشراب واللباس والمسكن.
- تنوعت مصادر الثروة في الأندلس، مما أتاح لخزينة الدولة أن تمتلئ بالمال، فانعكس ذلك جليا في ظهور بوادر حياة الترف والبذخ مع بداية الخلافة الأموية، حيث تم الإكثار من الجواري والرقيق فتوسعت العائلة، مما استدعت الضرورة إلى توسع العمران، ثم أتت حياة الترف والبذخ لتوسع في مفهوم الضرورة، فامتلأت موائد الأندلسيين بشتى أنواع المأكولات الباذخة والملبوسات الفارهة، كما انتشر شرب الخمر وسماع الغناء على أوسع نطاق.
- أدت حياة الترف والبذخ إلى خلق هوة كبيرة بين الطبقة الأرستقراطية والطبقة الدنيا، فالأغنياء ازدادوا غنىً، والفقراء ازدادوا فقرا وبؤسا.
- تعددت مظاهر حياة الترف والبذخ في الأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، إلا أننا نجد أن القرن الرابع الهجري كان القرن الأبرز من حيث الترف في العمران- زهراء الناصر وزاهرة بن أبي عامر-، أما القرن الخامس الهجري فقد انتشرت فيه شتى صنوف الترف على أوسع نطاق ، وهذا راجع لتنافس ملوك الطوائف فيما بينهم.
- أدت حياة الترف والبذخ بغالبية المجتمع الأندلسي إلى البطالة واللهو، ومال إلى حياة النعيم والدعة، وتحول الأندلس على امتداده العريض إلى مجتمع مستهلك ينفق في بذخ دون أن ينتج شيئا.
- المتأمل في حياة المترفين في الأندلس يجد أن حرصهم على ما هم فيه قد أغراهم على طلب المال من كل وجه، حل أو حرُم، ذاك لا يهم، المهم كيف تُستدام هذه النعم ولو على أنقاض الفئات المغلوبة على أمرها، المحرومة من أبسط حقوقها، وهذا ما لمسناه في إثقال كاهل هذه الفئة بشتى أنواع الضرائب المجحفة.
- كان لليهود يدَا طولى في تجارة الرقيق ،كما كان لهم دور كبير في إفساد ملوك الطوائف وجرّهم إلى حياة الترف.
- أدت حياة الترف والبذخ بملوك الطوائف أن ينغمسوا في فتنتها، ويتذوقوا حلاوتها، فلم يكن لهم هم سوى الاحتفاظ بمناصبهم، فتقاعسوا عن نصرة الإسلام والدفاع عن العقيدة.
- كان لبعض العلماء والفقهاء دور كبير في الحد من التمادي في حياة الترف والبذخ، وهذا ما رأيناه مع المنذر بن سعيد البلوطي الذي انتقد ترف الناصر في البناء، وكذلك الفقيه ابن حزم عندما انتقد تقاعس ملوك الطوائف وركونهم إلى حياة الرخاء والدعة، كما كان لهم دور في محاولة إقناع ملوك الطوائف بالوحدة والعمل معًا لمواجهة الأخطار النصرانية.

-أفضت حياة الترف والبذخ إلى انتشار الرذيلة، وتفشي الفاحشة في المجتمع الأندلسي، فانحطت قيمه، وانتكست مثله.

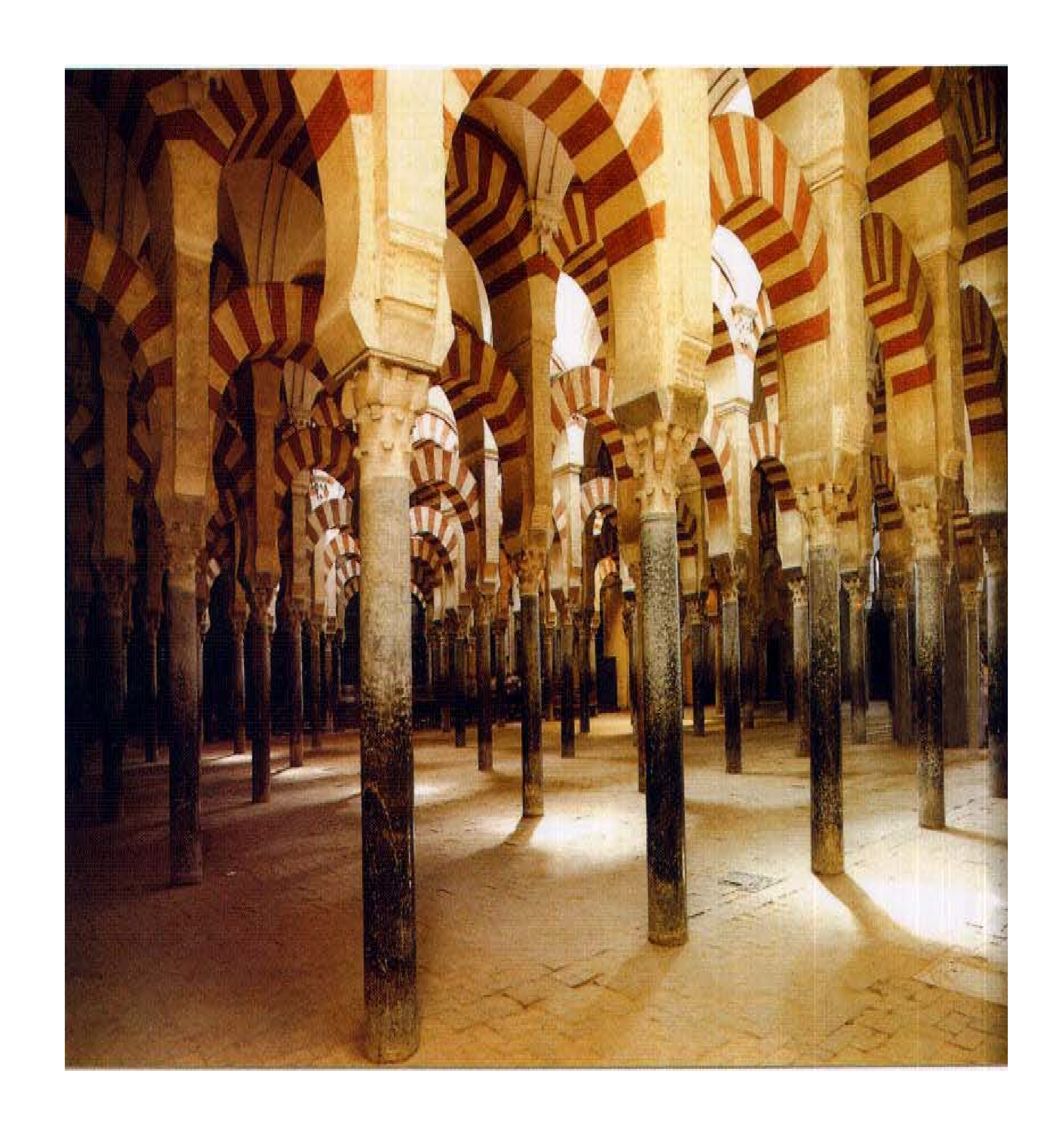
-كانت حياة الترف والبذخ سببا في ضعف ملوك الطوائف أمام شهواتهم الأرضية ورغباتهم الدنيوية، فلم يجدوا أي حرج في الاستعانة بالنصارى ضد إخوانهم المسلمين، وهو ما جعل العدو يدرك كنه حقيقة ملوك الطوائف، فلم يدّخر جُهدا في سبيل إذكاء الصراع القائم بينهم حتى يضعفوا ويلتهمهم جميعا، وهو ما حدث فعلا، حيث اضمحلت قوة المسلمين، وبدأت مدنهم في الضياع بدءا بطليطلة التي خرجت من أيدي المسلمين سنة 478هـ/ 1085م، ورغم أننا ندرك بأن ضياعها كان يعزى لعدة أسباب، إلا أنه في تقديري يرجع سبب سقوطها إلى أم هذه الأسباب ألا وهي حياة الترف والبذخ التي ارتضاها ملوك الطوائف وما صحبها من انحلال خلقي وانفراط لعقد الوحدة في الأندلس، فكان سقوطها الضربة القاصمة التي شالت بعدها كفة المسلمين، ورجحت جانب الكاثوليك.

الملاحق



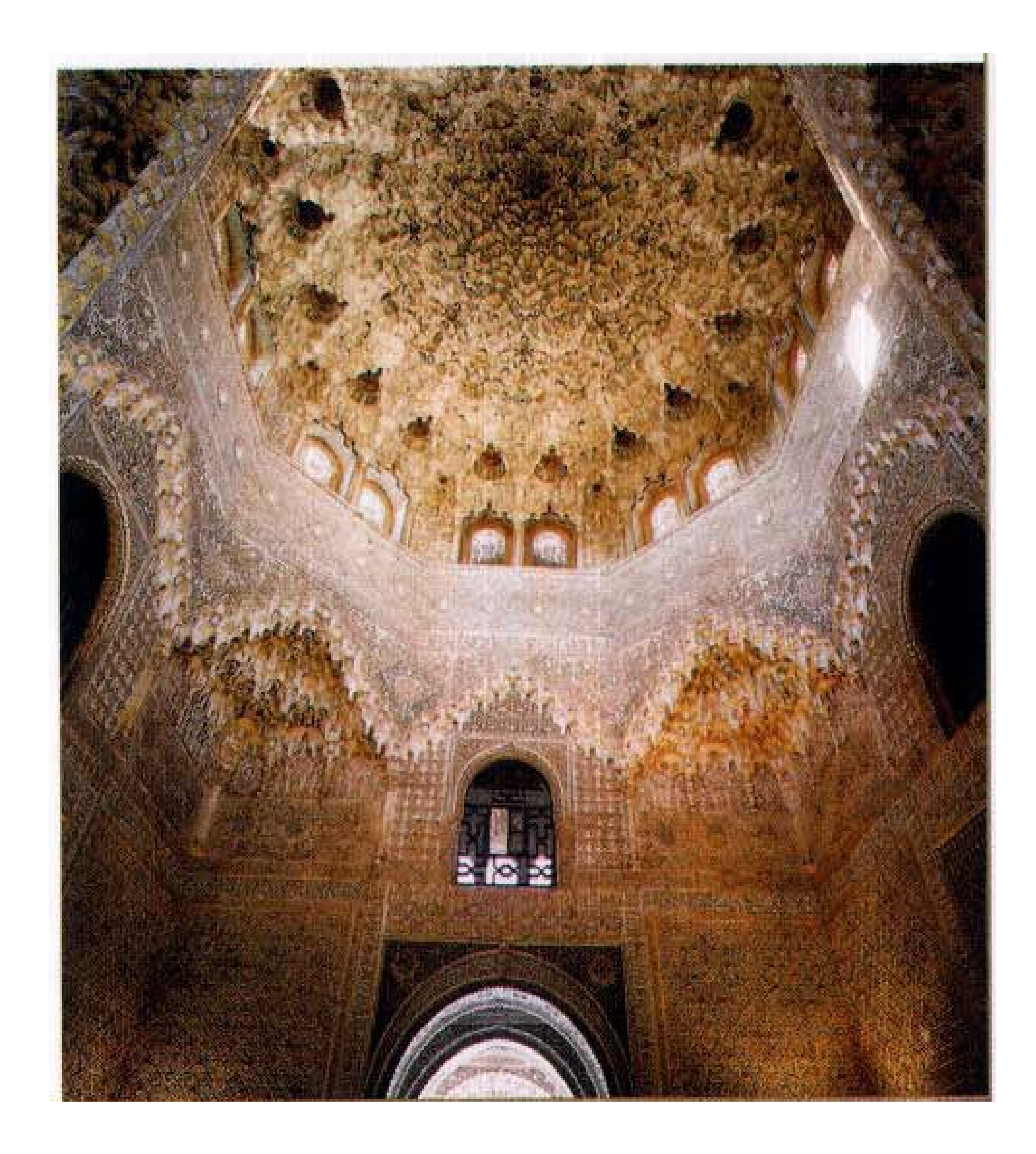
مسجد قرطبة الجامع – منظر من بيت الصلاة [1]

[1] حسين مؤنس : المساجد ، المرجع السابق ، ص340 .



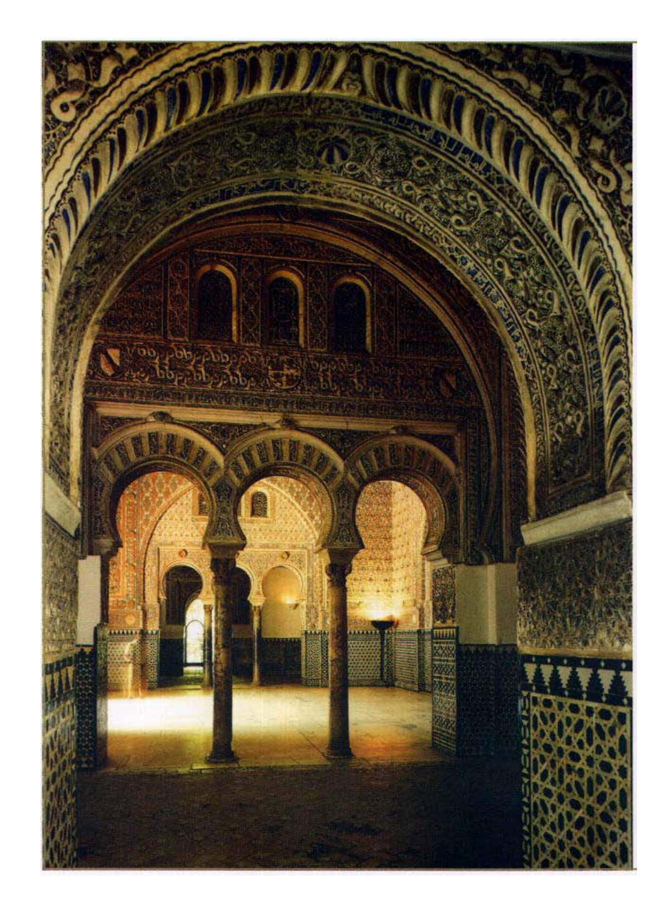
عدد هائل من الأعمدة داخل مسجد قرطبة [1]

[1] طارق السويدان : الأندلس التاريخ المصور ، المرجع السابق ، ص113 .



القبة العظيمة المدهشة في قصر الزهراء [1]

[1] طارق السويدان ، المرجع السابق ، ص145.



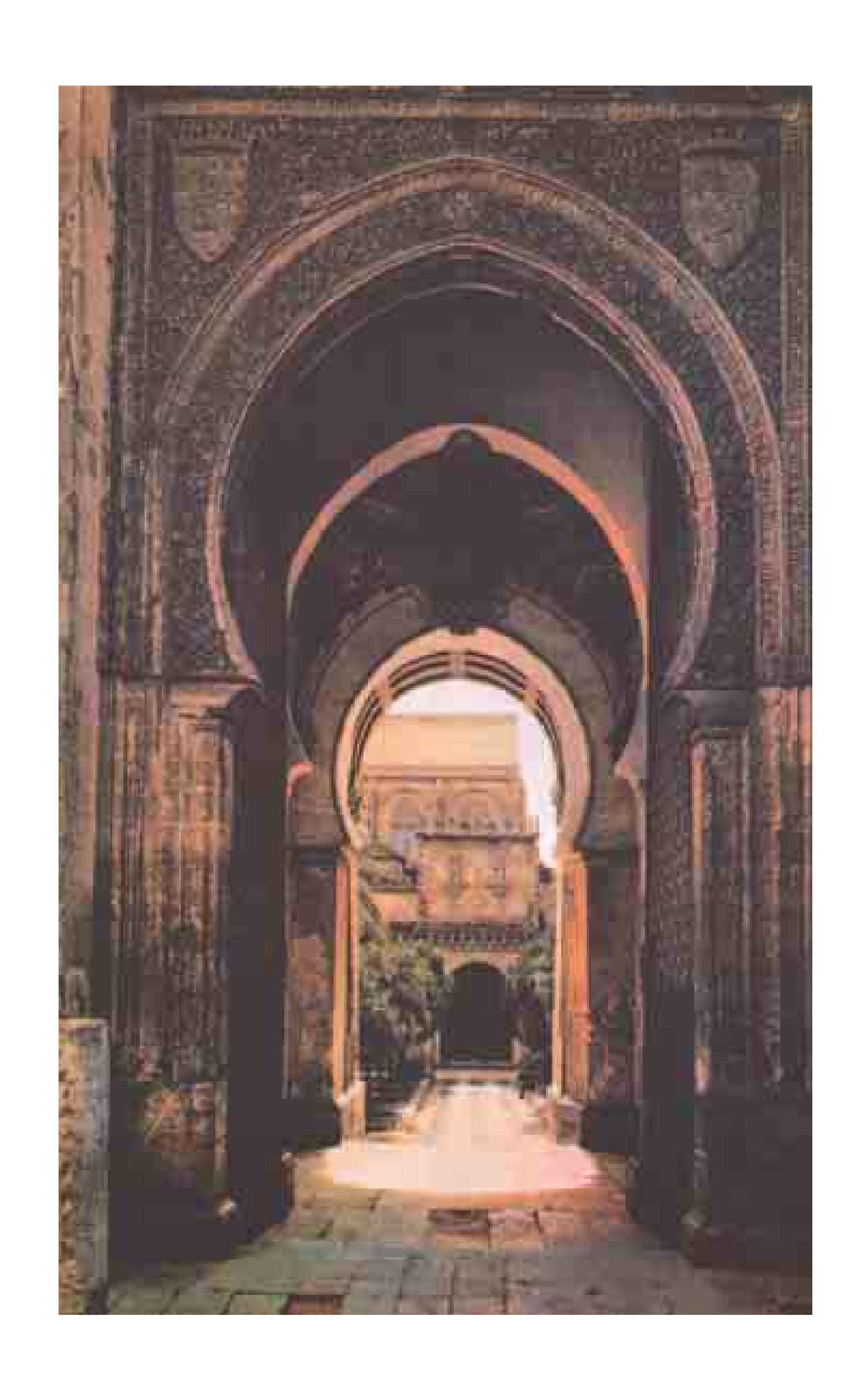
إبداعات الزهراء التي لم يكن لها سابق في التاريخ[1]

[1]طارق السويدان : المرجع السابق ، ص196.



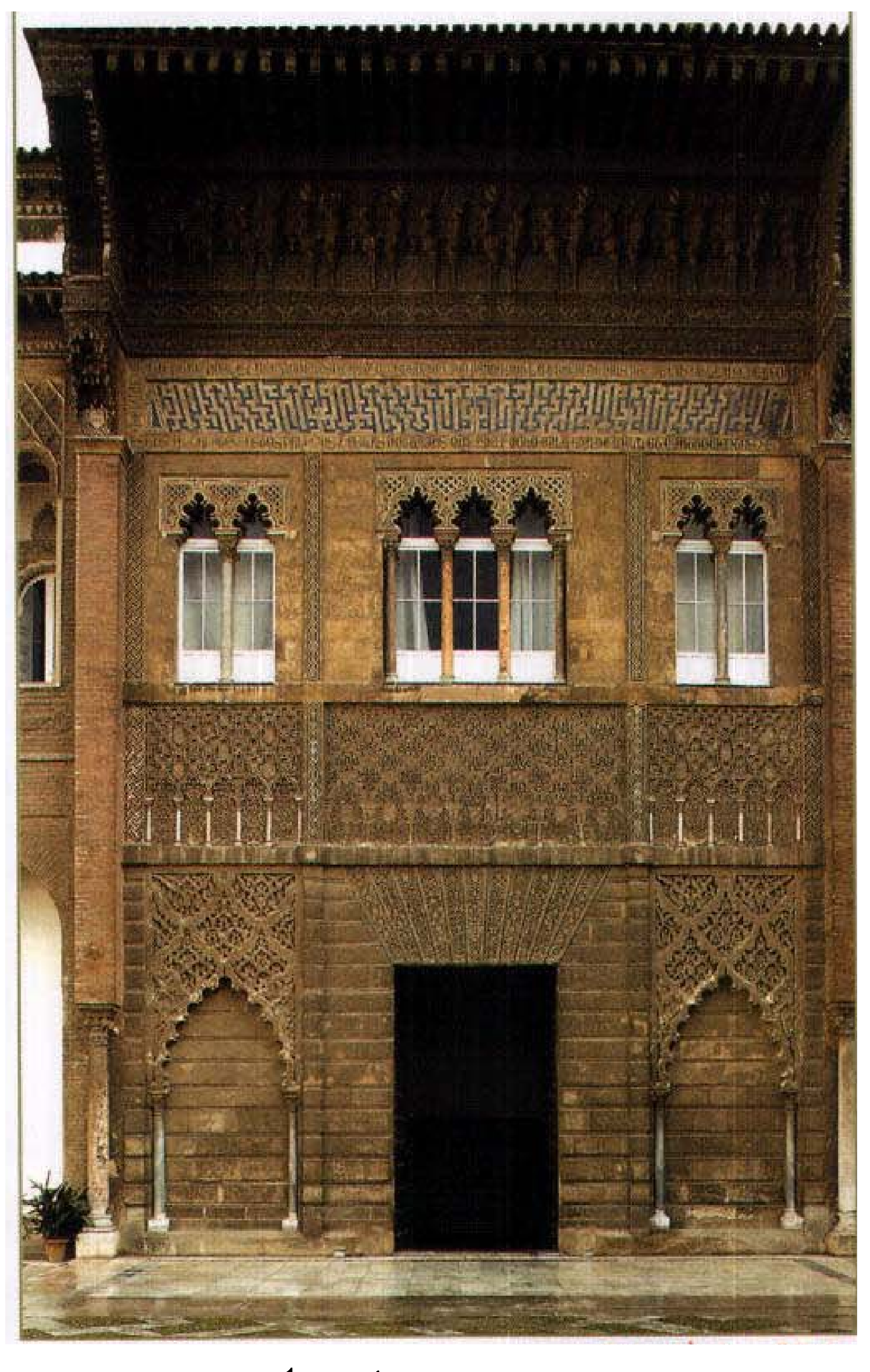
مدينة الزهراء – القاعة المخصصة للاستقبال - [1]

[1]طارق السويدان : المرجع السابق ، ص164.



المدخل الرئيسي لمسجد قرطبة الجامع المؤدي إلى الصحن المزين بأشجار النارنج[1]

[1]حسين مؤنس : المساجد ، المرجع السابق ، ص336.



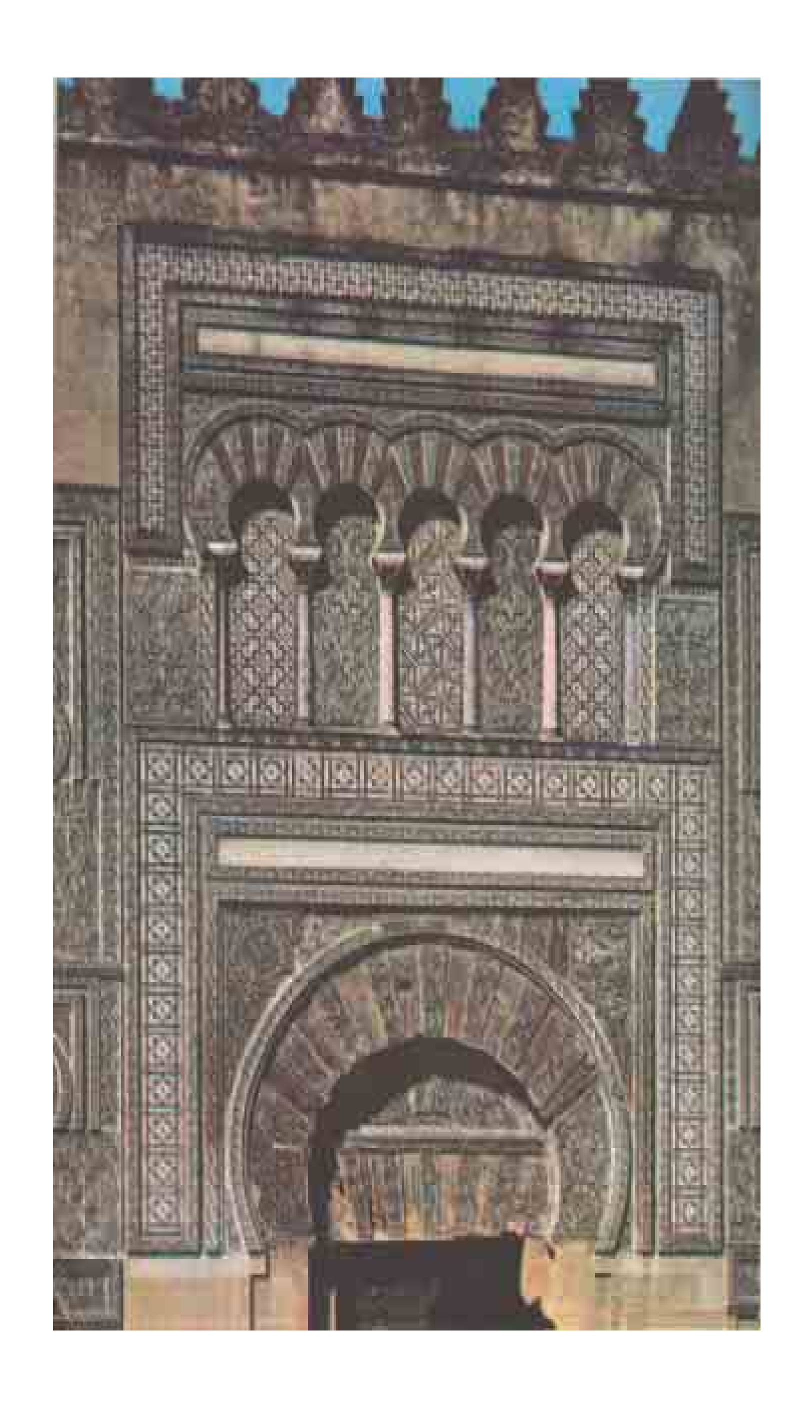
بوابة قصر في أشبيلية[1]

[1]طارق السويدان : الأندلس التاريخ المصور ، المرجع السابق ،ص147.



قاعة من قاعات القصور الخالدة في أشبيلية[1]

[1]طارق السويدان : المرجع السابق ، ص267.



باب من أبواب مسجد قرطبة الجامع [1]

[1]حسين مؤنس : المساجد ، المرجع السابق ، ص337.

جدول تاريخي مفصل لجميع دول الطوائف :
دولة بني جهور في قرطبة أبو الحزم بن جهور 422-435هـ/1031- 1044م أبو الوليد بن محمد بن جهور 435-457 هـ/ 1044-1064م عبد الملك بن محمد بن جهور 457-463 هـ/1064-1070م المعتمد يستولى على قرطبة سنة 463هـ
دولة بن عباد في اشبيلية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد 414 -433هـ/1023-1042م عباد بن محمد المعتضد433-461هـ/1042-1069م محمد بن عباد المعتمد 461-483هـ/ 1069-1091م اشبيلية تسقط في أيدي المرابطين **دولة بني الأفطس في بطليوس** عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور 413-437هـ/ 1022-1045م محمد بن عبد الله المظفر 437 461هـ/1045-1068 م يحي بن محمد المنصور 461-464 هـ/ 1068-1072م عمر بن محمد المتوكل464-488هـ/1072-1094م بطليوس تسقط في أيدي المرابطين
دولة بني يحي في لبلة أبو العباس أحمد بن يحي 413-434 هـ/1023-1042م محمد بن يحي عز الدولة 434-443هـ/1042-1051م فتح بن خلف ناصر الدولة 443-445هـ/1051-1053 لبلة تسقط في يد المعتصم بن عباد
دولة بني مزين في باجة و شلب الحاجب عيسى محمد--- 432 هـ/--- 1041م محمد بن عيسى عميد الدولة 432-440هـ/1041-1048م عيسى بن مزين المظفر 440-445هـ/1048-1053م محمد بن عيسى الناصر 445-450هـ/1053-1058م عيسى بن محمد المظفر 450-455هـ/1058-1063م شلب تسقط في يد المعتضد بن عباد
دولة بني البكري في ولبة و جزيرة شلطيش عبد العزيز البكري عز الدولة 403-443هـ/ 1012-1051م

ولبة و شلطيش تسقطان في يد المعتضد

دولة بني هارون في شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون 417-433هـ/1026-1031م

محمد بن سعيد المعتصم 433-443هـ/1031-1051م

شنتمرية الغرب تسقط على يد المعتضد

دولة بني ذي النون في طليطلة

إسماعيل بن ذي النون الظافر 427-435هـ/ 1036-1043م

يحي بن إسماعيل المأمون 435-467هـ/1020-1075م

يحي بن إسماعيل بن يحي القادر 467-478هـ/1075-1085م

طليطلة تسقط في يد الفونسو السادس

دولة بني مناد في غرناطة

زاوى بن زيري 403-410هـ/1013- 1019 م

حبوس بن ماكسن 411-428 هـ /1020-1037م

باديس بن حبوس المظفر 328-465هـ/ 1037- 1073 م

عبد الله بن بلكين 465-483هـ/1073- 1090 م

المرابطون يستولون على غرناطة .

دولة بني برزال في قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال 404-434 هـ/1013 -1042م

عزيز بن محمد المستظهر 434-459 هـ / 1042-1067م

قرمونة تسقط قي يد ابن عباد

دولة بني دمر في مورور

نوح بن أبي تزيري الدمري 403-433هـ/1013-1041م

محمد بن نوح عز الدولة 433-445هـ/1041-1053م

مناد بن محمد عماد الدولة 445-458هـ/1053-1066م

مورور تسقط في يد ابن عباد

دولة بني خزرون في أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة 402-420 هـ/1011-1029م

عبدون بن خزرون 420 -440 هـ /1029- 1053م محمد بن محمد بن خزرون القائم 445-461 هـ /1053-1068م أركش تسقط في يد ابن عباد
دولة بني يفرن في رندة هلال ابن أبي قرة اليفرني 406-445 هـ/1015-1053م باديس بن هلال 445-449 هـ/1053-1057م أبو نصر فتوح بن هلال 449-457هـ/1057-1065م رندة تسقط في يد ابن عباد
مملكة ألمرية 1 - خيران العامري 405-419هـ/1014-1028م زهير العامري 419-429هـ/1028-1038م عبد العزيز المنصور 429-433هـ/1038-1041م 2- معن من صمادح 433-443هـ/1041-1051م محمد بن معن المعتصم 443-484هـ/1051-1091م أحمد بن محمد معز الدولة 484 هـ/1091م المرابطون يستولون على ألمرية
مملكة مرسية 1- خيران العامري 403-419 هـ/1012- 1028م زهير العامري 419- 429هـ / 1028-1038م أبو بكر بن طاهر 429-455 هـ/1038-1063م أبو عبد الرحمن بن طاهر 455-471هـ/ 1063-1078م (حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك) ، ثم المعتمد يستولي على مرسية ابن عمار 471-473هـ /1078-1081م ابن رشيق 473-484هـ/1081-1091م المرابطون يستولون على مرسية
مملكة دانية والجزائر 1- مجاهد العامري الموفق 400 -436 هـ/1009- 1044 م على بن مجاهد إقبال الدولة 436-468 هـ /1044- 1076 م 2 –المقتدر بن هود صاحب سرقسطة 468 هـ -474 هـ /1076-1081م المنذر بن هود 474 -484 هـ /1081 -1091م المرابطون يستولون على دانية .

مملكة بلنسية
الفتيان مظفر ومبارك 400-408 هـ/ 1009-1017م لبيب العامري 408 -411 هـ / 1017-1021 م عبد العزيز المنصور 411- 452 هـ / 1021- 1061م عبد الملك بن عبد العزيز 452 -457 هـ/1061-1065م المأمون بن ذي النون يستولي على بلنسية . نائبه عليها أبو بكر بن عبد العزيز 457-478 هـ /1065-1085م عثمان ابن أبي بكر 478-...../1085-.....م القادر بن ذي النون 478-485هـ/ 1085- 1092م. القاضي بن الجحاف 485-487هـ/1092-1094م السيد الكمبيادور والقشتاليون 487-495هـ/1094-1102م المرابطون يستولون على بلنسية .
إمارة شنتمرية الشرق .
هذيل بن عبد الملك بن رزين 403-436هـ /1012-1045م عبد الملك بن هذيل 436 -496هـ /1045-1103م يحي حسام الدولة 496-497 هـ /1103 -1104 م المرابطون يستولون عليها .
إ مارة البونت
عبد الله بن القاسم 400-431هـ /1009-1039م محمد بن عبد الله يمن الدولة 431-434هـ/1039-1042م أحمد بن محمد عز الدولة 434 -440هـ/1042-1048م عبد الله بن محمد جناح الدولة 440-495 هـ/1048-1102م المرابطون يستولون على ألبونت
مملكة سرقسطة
المنذر بن يحي التجيبي 408-414 هـ/ 1017- 1023م يحي بن المنذر المظفر 414- 420 هـ/ 1023-1029م المنذر بن يحي معز الدولة 420-430 هـ/1029-1039م سليمان بن هود المستعين 431-438 هـ/ 1039- 1046م أحمد بن سليمان المقتدر 438-474 هـ/ 1046- 1081م يوسف بن أحمد المؤتمن 474-478 هـ/ 1081-1085م أحمد بن يوسف المستعين 478-503 هـ/1085-1110م عبد الملك بن احمد عماد الدولة 503-000 هـ/1110 -0000م المرابطون يستولون على سرقسطة

يعطي الجدول نبذة تاريخية عن دول الطوائف وتسلسل حكامها وانتهاء حكمهم في كل إمارة قامت بالأندلس ، خلال القرن الحادي عشر الميلادي الخامس هجري.

عبد الله عنان: ملوك الطوائف، المرجع السابق، ص 432.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- القرآن الكريم برواية حفص
- ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي(ت658هـ-1259م):

1- الحلة السيراء، تحقيق:حسين مؤنس، ج1، ط2،دار المعارف، القاهرة، 1985م.

2- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، د.ط، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1995م.

- ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني(ت630هـ) :

3- الكامل في التاريخ، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.

- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني(ت560هـ-1156م):

4- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2،ط1، عالم الكتاب، بيروت، 1989م .

- ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم(ت668هـ-1270م) :

5- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، د.ط، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت.

- أبي الأصبع عيسى بن سهل الأندلسي(ت486هـ-1093م):

6- ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس، تحقيق: محمد عبد الوهاب خلاف، ط1، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، 1981م.

- ابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني(ت542هـ):

7- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ق3-4، ج1، د.ط ، دار الثقافة، بيروت، 1997م.

- البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت 296هـ):

8- صحيح البخاري، ج4 ، دار صبح واديفوست، بيروت – الدار البيضاء، 2007م .

- ابن بشكوال خلف بن عبد الملك(ت578هـ-1183م):

9- الصلة: تحقيق: إبراهيم الأبياري، ج3، ط1، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة – بيروت، 1989م.

- ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي(ت779هـ-1377م):

10- رحلة ابن بطوطة المسماة(تحفة النضار في غرائب الأمصار)، تحقيق: طلال حرب، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

- البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود(ت510هـ-1117م):

11- تفسير البغوي، تحقيق:محمد عبد الله النمر وآخران، د.ط، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 1411هـ.

- الترمذي الإمام الحافظ أبوعسيى محمد بن عيسى(ت297هـ):

12- الجامع الكبي، تحقيق : بشار عواد معروف، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.

- ابن حزم أبي محمد علي(ت456هـ):

13- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس،ج1-2، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنش، بيروت، 1987م.

14- طوق الحمامة في الألفة وآلألاف، د.ط ،مكتبة عرفة، دمشق، د.ت.

- ابن حزم وآخران:

14- فضائل الأندلس وأهلها ،تحقيق: صلاح المنجد، ط1، دار الكتاب الجديد، د.م، 1968م.

- الحاكم بن عبد الله النيسابوري(ت405هـ-1014م):

15- المستدرك على الصحيحين، ج4، ط1، دار الحرمين، القاهرة، 1997م.

- الحميري محمد بن عبد المنعم(ت900هـ-1495م):

16- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

17- صفة جزيرة الأندلس، ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م.

- الحميدي أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي(ت488هـ):

18- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، د،ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1966م.

- ابن حوقل أبي القاسم(ت367هـ-977م):

19- المسالك والممالك، د.ط، مطبعة بريل، ليدن، 1872م.

20- صورة الأرض، د.ط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.

- ابن حيان القرطبي(ت469هـ-1076م):

21- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1994م.

- ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان عبد الله القيسي الاشبيلي (ت528هـ-1134م):

22- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م.

23- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق:حسين يوسف خربوش، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1989م.

- ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله التلمساني(ت776هـ-1374م):

24- الإحاطة في أخبار غرناطة ،تحقيق:محمد عبد الله عنان، ج1، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م.

25- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط2، دار المكشوف، بيروت، 1965م.

- ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد الحضرمي(ت808هـ-1406م):

26- تاريخ ابن خلدون، ج4، د.ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، 2000م.

27- المقدمة، د.ط، دار الفكر، بيروت، 2007م.

- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكرت(ت681هـ-1282م) :

28- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، د.ط، دار صادر، بيروت، بيروت، 1986م.

- ابن دحية ذو النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن(ت633هـ-1236م):

29- المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخران، د.ط، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت.

- ابن الدلائي أحمد بن عمر بن أنس العذري(ت478هـ-1085م):

30- نصوص عن الأندلس، تحقيق:عبد العزيز الأهواني، د.ط، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت.

- الذهبي أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت748هـ-1348م):

31- سير أعلام النبلاء، تحقيق: موسى نعيم العرقسوسي، ج8، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988م.

- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (ت685هـ-1286م):

32- المغرب في حلل المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1955م.

- السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي(ت، ق7هـ-13م):

33- في آداب الحسبة والمحتسب، ترجمة: ليفي بروفنسال، المعهد المتوسط الوطني المغربي، باريس، 1931م.

- الرشاطي أبو محمد وابن الخراط الاشبيلي:

34- الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق: إيميليومولينا وخاثينتو بوسك بيلا، د.ط، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد ، 1990م.

- الزهري أبوعبيد الله محمد بن أبي بكر(ت قبل 550هـ-1161م):

35- كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمد حاج صادق، د.ط، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

- الشوكاني محمد بن علي بن محمد:

36- نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ج2، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003م.

- ابن صاعد أبي القاسم محمد بن أحمد الأندلسي(ت462هـ-1070م):

37- طبقات الأمم د.ط، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912م.

- الصفدي صلاح الدين خليل أيبك(ت764هـ-1363م):

38- الوافي بالوفيات، ط2، دار صادر، بيروت، 1991م.

- الضبي أحمد بن بحي بن أحمد بن عميرة(ت599هـ-1202م):

39- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م.

- عبد الله بن بلقين:

40- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة(469-483هـ) المسماة بكتاب التبيان، تحقيق: ليفي بروفنسال، د.ط ، دار المعارف، مصر، د.ت.

- ابن عبدون وآخران:

41- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، 1955م.

- ابن عذارى أبو عبد الله محمد المراكشي(ت بعد 712هـ-1312م):

42- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق:ج.س كولان وليفي بروفنسال، ج2-3، ط2، دار الثقافة، بيروت، 1980م.

- ابن عماد عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي(ت1089هـ-1679م):

43- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1986م.

- أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت732هـ):

44- تقويم البلدان، د.ط، دار صادر، بيروت ،د.ت.

- ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي(ت403هـ-1013م) :

45- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج1، ط2، مطبعة المدني، القاهرة، 1988م.

- القزويني زكرياء بن محمد بن محمود:

46- آثار البلاد وأخبار العباد، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر.

- القلقشندي العباس بن أحمد بن علي(ت821هـ-1418م):

47- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915م.

- ابن قنفذ أبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني(ت809هـ):

48- الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط4، دار الآفاق الجديدة، بيروت،1983م.

- ابن الكتاني محمد الطبيب(420هـ-1030م):

49- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، ط2، دار الشروق، د.م ،1981م.

- الكتبي محمد بن شاكر(764هـ-1363م):

50- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، د.ط ، دار صادر ،بيروت، د.ت.

- ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير(ت774هـ):

51- البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج14، دار هجر، مصر، 1998م.

52- تفسير القرآن العظيم، تحقيق:سامي بن محمد السلامة،ج5، ط2، دار طيبة، السعودية، 1999م.

- ابن الكر دبوس أبي مروان بن عبد الملك التوزري (ت 681هـ- 1282م):

53- تاريخ الأندلس، تحقيق: أحمد مختار العبادي، د.ط، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ،1971م.

- الماوردي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت 450هـ):

54-الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، ط1 ، دار ابن قتيبة، الكويت،1989م.

- المحلي جلال الدين والسيوطي جلال الدين (791- 864هـ) /(849-911هـ):

55-تفسير الجلالين ، دار الإمام مالك ،الجزائر، 2010م.

- مجهول:

55-ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، ج1 ، د.ط ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1983م.

- المراكشي عبد الواحد (ت647هـ):

56-المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، د.ط ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د.ت .

- مسلم مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ - 875م):

57-صحيح مسلم بشرح النووي، ج7 ،ط1، المطبعة المصرية، مصر، 1929م.

- المقديسي شمس الدين أبي عبد الله محمد (378هـ -997م):

58-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، مطبعة بريل، ليدن، 1909م.

- المقري أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ -1631م):

59-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس،ج1-4-2 ، دار صاد، بيروت ، 1988م.

- النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي (ت بعد 792هـ بعد 1390م):

60-تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة التراث العربي، ط5،دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م.

- النووي محي الدين يحي بن شرف (ت676هـ):

61-المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، تحقيق: أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، ج7، ط1، دار بن الهيثم، القاهرة، 2003م.

• النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ- 1332م):
62-نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ج23، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

ثانيا: المراجع

1- المراجع العربية

• إحسان عباس:
1- تاريخ الأدب الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين، د.ط، دار الشروق، الأردن، 1997م.
• أحمد أمين:
2- ظهر الإسلام، ج3، د.ط، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2010م.
• أحمد فكري:
3- قرطبة في العصر الإسلامي، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983م.
• أحمد مختار العبادي:
4- في تاريخ المغرب والأندلس، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
• حسن إبراهيم حسن:
5- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، ط14، دار الجيل، بيروت، 1996م.
• حسن أحمد النوش:
6- التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ط1 ، دار الجيل، بيروت، 1992م.
• أبو الحسن الندوي:
7- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، د.ط، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
• حسين مؤنس:
8- معالم تاريخ المغرب والأندلس، د.ط، دار الرشاد، د.م، 2004م.
9- المساجد، د.ط، عالم المعرفة، الكويت، 1978م.

- الحسين محمد الخضر:

10- علماء الإسلام في الأندلس، تحقيق: صالح العود، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 2011م.

- حومد أسعد:

11- محنة العرب في الأندلس، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1998م.

- خالد الجبالي:

12- الزواج المختلط بين المسلمين والأسبان– من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة – (92- 422هـ)، د.ط، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.

- راغب السر جاني:

13- قصة الأندلس، ط1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 2011م.

- سعد بوفلاقة:

14- الشعر النسوي الأندلسي، د.ط، دار الفكر، بيروت، 2003م.

- السيد عبد العزيز سالم:

15- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1998م.

16- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.

17- المساجد والقصور في الأندلس، د.ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986م.

- سيد قطب:

18- في ظلال القرآن، ج4، دار الشروق، القاهرة، 1982م.

- صلاح خالص:

19- اشبيلية في القرن الخامس الهجري، د.ط، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

- طارق السويدان:

20- الأندلس التاريخ المصور، ط1، مطابع المجامع الدولية، الكويت، 2005م.

- طه ندا:

21- فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993م.

- عادل سعيد بشتاوي:

22- الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، د.ت.

- عبد الحليم عويس:

23- أوراق ذابلة من حضارتنا – دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، ط2، مؤسسة عبد الحكيم لعرابة، الجزائر، 2009م.

24- التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م .

- عبد الحميد محمد محي الدين والسبكي محمد عبد اللطيف:

24- المختار من صحاح اللغة، د.ط، مطبعة الاستقامة، القاهرة، د.ت.

- عبد الرحمان علي الحجي:

25- التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897 هـ / 711- 1492م)، ط2، دار القلم، دمشق، 1981م.

- عبد المجيد نعنعي:

26- تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، د.ط، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

- عبد الرحمان بن ناصر السعدي:

27- تفسير السعدي، د.ط ، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.

- عبد الهادي التازي:

28- التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، ج5، د.ط، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، د.م، 1987م.

- عصمت عبد اللطيف دندش:

29- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

- علي حسين الشطشاط:

30- نهاية الوجود العربي بالأندلس، د.ط، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م.

- فوزية كراز:

31- دور المرأة في الغرب الإسلامي من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن السابع الهجري، د.ط، دار الأديب، وهران، 2006م.

- كمال السيد أبو مصطفى:

32- تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي (95- 495هـ / 714- 1102م)- دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، د.ط، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، د. ت.

- محمد أحمد أبو الفضل:

33- تاريخ مدينة المرية الأندلسية، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996م.

- محمد الحسين:

34- ابن حزم الظاهري الأندلسي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011م.

- محمد حسين قجة:

35- محطات أندلسية، ط1، دار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.

- محمد سعيد الدغلي:

36- الحياة الاجتماعية في الأندلس، ط1، منشورات دار أسامة، د.م، 1984م.

- محمد عبد الله عنان:

37- دولة الاسلام في الأندلس – دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابط، ط4، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م.

38- دولة الاسلام في الأندلس – الخلافة الأموية والدولة العامرية، ط4، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م.

- محمد عبده حتاملة:

39- موسوعة الأندلس والمغرب العربي، ط1، دار المدار الثقافية، عمان، 2009م .

- محمد عبد الحليم رجب:

40- العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا المسيحية، د.ط، دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني، القاهرة – بيروت، د.ت.

- محمد عدنان غزال:

41- مصادر دراسة ابن زيدون، د.ط، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004م .

- محمد سهيل طقوش:

42- تاريخ المسلمين في الأندلس، ط3، دار النفائس، بيروت، 2005م.

- محمد الغزالي:

43- الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط3، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.

- محمد بن موسى الشريف:

44- نماذج تاريخية ومعاصرة من مآسي الافتراق وأثر ذلك على الأمة، ط2، دار الأندلس الخضراء، بيروت، 2012م.

45- الترف وأثره في الدعاة والصالحين، ط2، دار الأندلس الخضراء، السعودية، 2004م.

- مريم قاسم طويل:

46- مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح (443 – 484 هـ / 1051 – 1091 م)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994 م.

47- مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403- 483هـ / 1012-1090م)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

- منشورات وزارة الثقافة:

48- موسوعة التاريخ الإسلامي – المسلمون في الأندلس، د.ط، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، 2011م.

- نجيب زبيب:

49- الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995م.

- هاشم عبد الرؤوف:

50- رسالة ووصية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري، د.ط ، دار البشير، د.ت .

- هلال جودة وصبح محمد محمود :

51- قرطبة في التاريخ الإسلامي، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

- يحي عباسي:

52- الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس، ج2، دون ذكر الدار ولا مكان النش، 2000م.

- يحي وهيب الجبوري:

53- النساء الحاكمات من الجوري والملكات، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م.

- يوسف حسين دويدار:

54- المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ط1، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، 1994م.

- يوسف القرضاوي:

55- فقه الزكاة، ج1، ط20، مكتبة رحاب، الجزائر، 1988م.

2- المراجع المترجمة إلى العربية:

- بالنثيا آنخل جنثالث:

56- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، د.ط، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، 1955م.

- بروفنسال ليفي:

57- حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، د.ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- ريبيرا خوليان:

58- التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1994م.

- رينهرت دوزي:

59- المسلمون في الأندلس، ج3، ترجمة: حسين مؤنس، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995م.

60- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة: كامل كيلاني، ط1، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، 1933م.

- ديورانت وول:

61- قصة الحضارة، ج4، دون ذكر الدار ولا تاريخ النشر.

- جومث مورينو:

62- الفن الإسلامي في اسبانيا، ترجمة: لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز سالم، د.ط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت.

- وات مونتغمري:

63- في تاريخ اسبانيا الاسلامية ترجمة: محمد رضا المصري، ط2، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 1998م.

- هونكة زيغريد :

64- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط8، دار الجيل، بيروت، 1993م.

- يوسف أشباخ:

65- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م.

ثالثا: المعاجم

- الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ - 1229م):

1- معجم البلدان، د.ط، دار صادر، بيروت، 1977م.

- الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت بعد 666هـ - بعد 1268م):

2- مختار الصحاح، د.ط، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م.

- الزبيدي محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت 1205هـ - 1790م):

3- تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مصطفى حجازي، د.ط، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1987م.

- الزركلي خير الدين:

4- الأعلام، ج6، د.ط، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

- ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت 458هـ - 1066م)

5- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الجميد هنداوي، ج9، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000م.

- عطية شعبان عبد العاطي وآخران:

6- المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م.

- عمر رضا كحالة:

7- أعلام النساء، ج1، د.ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1959م.

- الفراهيدي أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد (ت 107هـ - 786م):

8- العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ن، د.ت.

- المطرزي أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز (ت 610هـ - 1213م):

9- المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، ط1 ، مكتبة أسامة بن زيد، سوريا، 1979م.

- ابن منظور محمد بن مكرم (ت 711هـ - 1311م):

10- لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبيروآ خران، ج4، د.ط، دار المعارف، د.ت.

رابعا: الرسائل الجامعية

- خميسي بولعراس:

1- الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة باتنة، 2006م.

- عبد العزيز حاج كولة:

2- الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالأندلس من خلال فقه النوازل في القرنين (5- 6هـ / 11-12م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2009م.

- محمد حصباية:

3- الممالك النصرانية وعلاقتها بملوك الطوائف خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008م.

- نادر فرج زيارة:

4- الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي (92هـ - 711م / 668هـ - 1269)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب في الجامعة الإسلامية، غزة، 2010م.

خامسا: المقالات

- إبراهيم القادري بوتشيش:

1- "أثر الأزمة الأخلاقية في سقوط الأندلس"، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.

- أحمد مختار العبادي:

2- "الزراعة في الأندلس وتراثها العلمي"، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة، الإسكندرية، 1994م .

- أنور محمد زناتي:

3- "المجتمع الأندلسي في القرن الرابع الهجري من خلال شهادة مؤرخ معاصر- ابن حيان القرطبي "، دورية كان التاريخية، ع04، السنة ثانية، مصر، 2009م.

- سحر عبد العزيز سالم:

4- "ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي"، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.

- السيد عبد العزيز سالم:

5- "صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج19، سنة 1976- 1978م.

6- "العمارة الاسلامية في الأندلس وتطورها "، مجلة عالم الفكر، مج 9، ع01، أفريل– ماي –جويلية 1977م.

- شلميطابدرو:

7- "صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي"، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م.

- عبد الحليم عويس:

8- "العصبية القومية وأثرها في سقوط الأندلس"، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة، الإسكندرية، 1994م.

- عبد الحميد سعد زغلول:

9- "عملية الإنقاذ المرابطي في الأندلس مابين ملوك وجماعات الشعب العامل "،بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، دار المعرفة، الإسكندرية، 1994م.

- عدنان مردم بك:

10- "هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها، ثم سقوطها، أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس"، محاضرات ومناقشات الملتقى التاسع للفكر الإسلامي، مج4، منشورات وزارة الشؤون الدينية، تلمسان، 10-19 جويلة 1975م.

- عطا الله دهينة:

11- "الأندلس في القرن الخامس الهجري"، مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، 1980م.

- عمر راجح شلبي:

12- "دور علماء الأندلس في الحياة السياسية خلال القرن الخامس الهجري"، مجلة الجامعة الإسلامية، مج16، ع02، جويلة، 2008م.

- غرابار أولغ:

13- "نضرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الاسبانية" ،كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م.

- محمد الكحلاوي:

14- "عرفاء البناء في المغرب والأندلس وأهم أعمالهم المعمارية "، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق03، ط1، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996م.

- محمد اليعلاوي:

15- "تراجم أندلسية منتقاة من كتاب المقتفى للمقريزي"، مجلة دراسات أندلسية ، ع01، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، 1988م.

- ميكل دي ايبالزا:

16- "المستعربون أقلية مسيحية مهمة في الأندلس"، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، 1998م.

- وينز دايفد:

17- "فنون الطبخ في الأندلس"، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998م.

سادسا: المراجع الأجنبية

-Clare(Lucion):Le moyen Age Espagnol , Libraire Armand Colind , Paris , 1972 .

- Fossier Robert: Enfance de L'Europe Aspects économiques et sociaux, L'homme et son espace, Les éditions P.U.F, Paris , 1982 .

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية:

نص الآية	السورة	رقمها	الصفحة
وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.	الأعراف	31	4
قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.	التوبة	29	15
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.		109	76
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ.	هود	116	4
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا.	الإسراء	16	4
وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ، لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ.	الأنبياء	13-11	5
وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ.	المؤمنون	33	6
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.	الشعراء	-128 136	75
وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ	سبأ	34	5
وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُون	الزخرف	23	5
وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ.	الواقعة	45-41	6

- **فهرس الأحاديث النبوية**

الصفحة	الحديث
4	كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة إن الله يحب أن يرى نعمته على عبده.
6	عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا، قلت لا يا رب، ولكن أشبع يوما و أجوع يوما.
6	من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا.
7	الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم.
7	إن رسول الله ﷺ نهانا بأن نشرب في الذهب والفضة وأن نلبس الحرير والديباج فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة.
7	أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس القسي والمعصفر وعن تختم الذهب وعن قراءة القرآن في الركوع.

- **فهرس الأعلام**

"أ"

"ب"

"غ"

"ف"

"ق"

"ك"

"م"

- **فهرس الجماعات والشعوب والقبائل**

"ر"

"ز"

"س"

"ص"

"ع"

"ف"

- **فهرس الأماكن**

"أ"

"ل"

"م"

"ن"

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني : حياة الترف والبذخ على عهدي الخلافة و الدولة العامرية (300-399هـ)..

الفصل الثالث : حياة الترف والبذخ على عهد ملوك الطوائف (400-484هـ)